الجزء ٢ المجلد ١٠



(دمشق) : شباط سنة ١٩٣٠ م الموافق رمضان سنة ١٣٤٨ هـ

١١٠

تصحيفات غريبة

في معجمات اللغة

« فَقَنَّس وقوقيس وقوق ومقوقس »

لم يفت علماء اللغة العربية من ابناء الشرق ان بعض الألفاظ المقيدة في المعاجم اصلها تحريف وتصحيف وقد بين ذلك ايضاً وأجاد في بيانه المستشرق المحترم الشهير الاستاذ اغناطيوس غويدي (Guidi) في رسالة ايطالية نشرها قبل اثنين واربعين سنة في مجموعة الابحاث المقدَّمة للمؤتمر الدولي السابع للمستشرقين المنعقد بمدينة ويَنّا سنة ١٨٨٦[١] ومن المعلوم ايضاً ان بعض الكتبة لما شغفوا بغريب الالفاظ استخرجوا احياناً تلك التصحيفات من كتب اللغة واستعملوها في تأليفاتهم كأنها كلمات صحيحة · ومن هذا القبيل لفظ الفَقَنَّس الذي اول من قيده في المعاجم العربية صاحب القاموس وشرحها بعبارات تدل على ان الكلمة جمع تصحيفين مختلفين كما سيظهر من مقالتي هذه الصغيرة ان شاء الله · جاء في تاج العروس من جواهر القاموس (ج٤ ص ٣١٠) ما نصه[٢] :

« (الفَقَنَّس كعَمَلَّس) اهمله الجماعة قال الدميري في حياة الحيوان هو (طائر

(١) I.Guidi, Alcune osservazioni di lessicografia araba, Verhandlungen des 7. Orientalisten - Congresses in Wien 1886, في semitische Sektion, Wien 1888, 83 - 88

(٢) مابين هلالين لفظ القاموس ·

عظيم بمنقاره اربعون ثقباً يصوّت بكل الانغام والالحان العجيبة المطربة يأتي الى رأس جبل فيجمع من الحطب ما شاء ويقعد ينوح على نفسه اربعين يوماً ويجتمع اليه العالم يستمعون اليه ويتلذذون) بحسن صوته (ثم يصعد الى الحطب ويصفق بجناحيه فتنقدح منه نار ويحترق الحطب والطائر ويبقى رماداً فيتكون منه طائر مثله ذكره ابن سينا في الشفاء) فالعهدة عليه وقد ذكروه في شرح قوله (والذي حارت البرية فيه) بيت التلخيص وشرحه في المطول وحواشيه وكأنه سقط من نسخة شيخنا [١] فنسب المصنف الى القصور وهو كما ترى ثابت في سائر النسخ وقال القزويني هو قرقيس [٢] ثم ذكر قصته بمثل ماذكرها الدميري [٣] وزاد فاذا سقط المطر على ذلك الرماد تولد منه دود ثم تنبت له اجنحة فيطير [٤] طيراً فيفعل كفعل الاول من الحك والاحتراق » .

وفي مستدركات صاحب تاج العروس على مادة قوقس ما نصه (ج ٤ ص ٢٢٠ في الاسفل) :

---

(١) هو الشيخ ابو عبد الله محمد بن الطيب بن محمد بن موسى الفاسي المولود بفاس سنة ١١١٠ هـ (١٦٩٨—١٦٩٩م) المتوفى بالمدينة المنورة سنة ١١٧٠ هـ (١٧٥٦ — ١٧٥٧ م) صاحب تآليف منها حاشية على القاموس ورحلة مهمة جداً وصف فيها سفره من فاس الى مكة ورجوعه الى فاس سنة ١١٣٩—١١٤٠ هـ (١٧٢٧ — ١٧٢٨ م) . وقد سردت ترجمته وكتبه السيدة المستشرقة الايطالية (Laura Veccia Vaglieri) في مقالة عنوانها (Viaggio di un pellegrino attraverso la Libia nel secols XVIII) أدرجت في مجلة (Rivista della Tripolitania) (ج ١ سنة ١٩٢٤ ص ١٣٥—١٣٨) وزدت انا على تلك الاخبار في مقالتي (A proposito del viaggio di un pellegrino attraverso la Lrbia) في المجلة المذكورة (ج ١ سنة ١٩٢٥ ص ٣٧٥ — ٣٨١) .

(٢) لعله غلط مطبعي بدل قوقيس كما ورد في نص آخر من تاج العروس سأذكره عن قريب .

(٣) والصواب ان الدميري نقل قول القزويني . (٤) والصحيح « فيصير » .

« وقوقيس اسم طائر نقله القزويني وقد ذكره[١] في ققنس » (كذا بتقديم القاف وهو غلط مطبعي) ٠

اما نسب وصف الفقنس الوارد في القاموس الى الدميري فهو ظاهر من صاحب تاج العروس لان الفقنس غير مذكور في كتاب حياة الحيوان الكبرى[٢] وما قاله الدميري في قوقنس (او قوقيس كما جاء غلطاً في الطبعات) غير ذلك ومأخوذ من القزويني حرفياً كما قال الدميري نفسه ٠ ونص القزويني[٣] هذا :

« قوقنش[٤] طائر يوجد بارض الهند قال صاحب تحفة الغرائب[٥] هذا الطائر عند التزاوج يجمع حطباً كثيراً للعش ثم لا يزال الذكر يحك منقاره على منقار الانثى حتى تتأجج النار من حكهما في ذلك الحطب و يشتعل و يحترقان فيها فاذا وقع المطر على رمادهما

(١) أراد صاحب القاموس لا القزويني الذي لا ذكر للفقنس والقفنس في كتابه ٠

(٢) وعلى كل حال ولو كان ذكر الفقنس موجوداً في كلا الكتابين بكلام واحد لاستحال الفصل فيما هو الاصل منهما اذ المؤلفان معاصران فعاش الدميري من سنة ٧٤٥ الى ٨٠٨ هـ وعاش الفيروزابادي من سنة ٧٢٩ الى ٨١٧ ٠

(٣) El - Cazwini's Kosmographie herausgegeben von F. Wüstenfeld, Gôltingen 1849 (ج ١ ص ٤٢٣) . وفي الطبعات المصرية من كتاب عجائب المخلوقات (وهو القسم الاول من كتاب القزويني المتوفى سنة ٦٨٢ هـ) اختلافات يسيرة جداً في الرواية لا تغير المعنى ٠

(٤) كذا في الطبعة الافرنجية وهو اصح من « قوقيس » الوارد في الطبعات المصرية وكتاب الدميري وتاج العروس في ثاني الموضعين المذكورين آنفاً ٠ ويظهر ان الدميري نفسه كان قد كتب « قوقنس » بالنون لانه جعله بين القُوق والقُوقي في كتابه المرتب على ترتيب حروف الهجاء ٠

(٥) كثر ذكر هذا الكتاب في كلا قسمي كتاب القزويني ولكن بدون اسم مؤلفه الذي لا يزال مجهولاً لدينا ٠ انظر في ذلك ما قاله G. Ferrand, Le Tuhfat al - Albab de Abu Hamid al - Andalusi al - Garnati, Paris 1925 ص ٢٤٠—٢٤١ (مستخرج من مجلة Journal Asiatique) ٠

يبقى[١] الدود منه ثم ينبت لها جناح وتكبر فتصير قوقنسًا[٢] كما كان اصله ثم يفعل ما فعل اصله » .

اما المصراع المذكور في تاج العروس فمن مرثية ابي العلاء المعري لفقيه حنفي مجهول الاسم . قال في البيتين السابقين للاخير[٣] :

بان امر الاله واختلف النا … س فداع الى ضلال وهاد

والذي حارت البرية فيه … حيوان مستحدث من جماد

واختلف الشراح اختلافاً غريباً في شرح الثاني ومنهم من زعم ان المعنيّ به آدم عليه السلام حيث خلق من التراب (وهو رأي يوسف بن طاهر الخويي في شرح التنوير) ومنهم من زعم انه عصا موسى عليه السلام ومنهم من قال انه ناقة صالح ومنهم من اصاب وقال ان المراد المعاد الجسماني[٤] . ثم اتخذ ابو يعقوب يوسف السكاكي (المتوفى سنة ٦٢٩ هـ) البيت الثاني شاهداً لكون المسند اليه موصولاً[٥] واتخذه بعده الخطيب القزويني المتوفى سنة ٧٣٩ هـ في تلخيص المفتاح شاهداً لتقديم المسند اليه فذهب بعض شراح التلخيص الى ان المراد في البيت القفنس . قال بهاء الدين احمد بن تاج الدين علي السبكي المتوفى سنة ٧٧٣ في عروس الافراح في شرح تلخيص المفتاح ج ١ ص ٣٩٠ من طبعة مصر سنة ١٣٤٢ (وفي آخرها ١٣٤٥) : « وقيل معناه ان الله خلق طائراً في

(١) وفي الطبعات المصرية وكتاب الدميري وتاج العروس « تولد » او « يتولد » وهو اصح . (٢) وفي الطبعات المصرية وكتاب الدميري وتاج العروس « طيراً » .

(٣) شرح التنوير على سقط الزند لابي العلاء المعري (ج ١ ص ٢١٧) من طبعتي بولاق (١٢٨٦) ومصر (١٣٠٣ — ١٣٠٤) .

(٤) هذا رأي ابي محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي المتوفى سنة ٥٢١ هـ في شرحه لسقط الزند كما قيل في بعض شروح تلخيص المفتاح . واليه ذهب ايضاً سعد الدين التفتازاني وعبد الرحيم بن عبد الرحمن بن احمد العباسي المتوفى سنة ٩٦٣ هـ في كتاب معاهد التنصيص شرح شواهد التلخيص (ج ١ ص ٤٨) من طبعة مصر سنة ١٣١٦ هـ وغيرهما . (٥) مفتاح العلوم للسكاكي طبعة مصر سنة ١٣١٧ هـ ص ٩٨ .

بلاد الهند اسمه ققنس يضرب به المثل في البياض وله منقار طويل وهو حسن الالحان يعيش الف سنة ثم يلهمه الله الموت فيجمع الحطب حواليه و يضرب بجناحه الحطب فتخرج نار فيشتعل فيحترق فيخلق الله من رماده بعد مدة مثله » . وقال محمد بن محمد عرفة الدسوقي المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ في حاشيته على شرح التفتازاني المختصر لتلخيص المفتاح ج ١ ص ٣٩٣ من الطبعة المذكورة :

« وقال بعضهم المراد به طائر بالهند يقال له القفنس يضرب به المثل في البياض له منقار طويل فيه ثلاثمائة وستون ثقبة على عدد ايام السنة اذا صوت يخرج من كل واحدة منها صوت حسن يعيش الف سنة واذا انتهى اجله وألهمه الله ذلك دخل عشه ونفخ فيه فيحدث في العش اصوات مطربة فيحترق العش بنار تحدث حينئذ ويحترق ذلك الطائر في العش حتى يصير رماداً ثم يخلق الله من ذلك الرماد بعد ثلاثة ايام ذلك الطائر مرة اخرى ثم اذا انتهى اجله فعل مثل ما فعل اولاً وهلم جرا » .(١)

اما الذي جاء في القاموس ان هذا الطائر العجيب مذكور في كتاب الشفاء لابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ هـ (١٠٣٧ م) فلا سبيل لي الى تحقيقه لانه لم يطبع من الشفاء الا قسم الالهيات وقسم الطبيعيات بطهران سنة ١٣٠٣ — ١٣٠٥ وما وجدت فيهما ذكر هذه الامور كما لم اجده في الترجمة اللاتينية لفن الحيوان من طبعيات الشفاء وهي ترجمة عملها في ايطاليا ميخائيل الاسكوتي (Michael Scotus) بامر الانبراطور فريدريك الثاني الذي تولى الملك من سنة ١١٩٦ الى ١٢٥٠ م .

ومن الجدير بالذكر ان عجائب شبيهة بهذه نسبها القزويني في كتاب عجائب المخلوقات الى العنقاء ايضاً فقال (ج ١ ص ٤٢٠ من طبعة غوتنجن) :

« وذكروا ان عمر العنقاء الف وسبعمائة سنة و يتزاوج اذا اتى عليه خمسمائة سنة فاذا حان وقت بيضها وجدت لذلك الماً شديداً فيأتي الذكر بماء البحر في منقاره و يحقنها به فيخرج البيض بسهولة فيحضن الذكر البيض والانثى تمشي تصيد و يفرخ البيض بمائة

(١) انظر ايضاً مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح (ج ١ ص ٣٩٢) من الطبعة المذكورة وهو كتاب الفه ابن يعقوب المغربي بمكناسة سنة ١١٠٨ هـ .

وخمس وعشرين سنة فاذا كبر الفرخ فان كان انثى فالعنقاء الانثى تجمع حطباً كثيراً والذكر يحك منقاره على منقار الانثى حتى يتوقد منه النار ويضرم في ذلك الحطب والانثى تدخل تحت النار حتى تحترق والفرخ يبقى زوج الذكر وان كان الفرخ ذكراً فالعنقاء الذكر يفعل مثل ما فعل الانثى و يبقى الفرخ زوج الانثى » .

اما الدميري مع كثرة نقله عن القزويني ومع اطالة الكلام في العنقاء فلا يذكر ذلك وعلى كل حال كانت هذه الروايات منتشرة في الشرق العربي في القرن الرابع للهجرة (العاشرة للميلاد) لان اباالحسن بر بهلول النسطوري قال في معجمه السرياني العربي (١) المؤلف قبيل سنة ١٠٠٠ م :

« (فونيكس) عنقاء مغرب تحرق نفسها وتصير دودة ثم يتولد منها حيوان مثل الاول . (فونكوس) او (فونكس) ... طير يسمي فنخس (فونيكس) قيل يعملون من ريشه منديل واذا اتسخت يلقونها في النار فتنظف وتنقى وهي تصلح للملوك (٢) ... (فونيكس) الوحيد

(١) Lexicon syriacum auctore Hassano Bar Bahlule, ed, R. Duval, Pazisiis 1888 - 1896 عمود ١٥١٤ — ١٥١٥ . وعربيته كثيرة اللحن كما يظهر مما أنقله بدون تغيير لان اللحن صادر عن المؤلف لا عن نساخه . والكلمات الموضوعة بين هلالين سريانية مكتوبة بالحروف السريانية في الاصل .

(٢) الظاهر من هذا الوصف ان فونيكس بهذا المعنى لفظ مرادف للفظ الآخر السرياني سَلَمَنْدَرَا وهي مايسمى في كتب العرب السَّمَنْدر او السَّمَيْدر اوالسمند او السَّمَنْدَل او السَّبَنْدَل تقول العرب انه طائر ببلاد الهند لا يحترق بالنار واذا انقطع نسله وهرم ألقى نفسه في الجمر فيعود الى شبابه وزعموا ايضاً ان المنسوجات غير المؤثرة بالنار المجلوبة من أقاصي البلاد الاسيوية كانت من وبره او ريشه . والحقيقة ان كل هذه الألفاظ محرفة عن كلمة (salamandra) اليونانية (وهي ايضاً لاتينية وايطالية و بالفرنسي salamandre) وهو نوع من الحرذون موجود باوربا كان القدماء يقولون انه لبرودة طبيعته يستطيع ان يجتاز بالنار بدون احتراق . اما السريان والعرب فعند اخذهم ذكر (salamandra) من كتب اليونان ظنوا ان هذا الحيوان طائر بالهند

الذي لا يشبه احد . وايضاً (فونيكس) العنقاء وهي طير يحرق نفسه وهو كل خمسمائة سنة اذا أراد ان يتجدد يحمل على جناحيه خشب الدارصيني ويجعله في مكان ويحك نفسه عليه فيظهر منه نار تحرقه فيبقى رماداً فيصير من ذلك الرماد دودة وتنشو وتصير فرّوج ويصير لها جناحات وبعد سبعة ايام تصير عنقاء كما كانت اولاً وتسمى ايضاً فنخس » .

* * *

أخذت الفرس ايضاً عن العرب بعد الاسلام هذه الحكايات العجيبة وقالوا بالفارسي (قَقْنُس) او (قَقْنوس) « بقافين اولاهما مفتوحة وثانيتهما ساكنة وبعدها نون مضمومة كما ضبط في المعجم الفارسي الشهير الموسوم ببرهان قاطع » او (قوقُنُس) « بقافين ايضاً ثانيتهما بالضم كالنون التالية » او (قوقُنوس) . وأطال الكلام في ققنس « بسكون القاف الثانية كما يتضح من الوزن » الشاعر الشهير فريد الدين عطار[1] في منظومته الفارسية المزدوجة المشهورة في التصوف المسماة منطق الطير[2] وقال ما هذا ملخصه :

يوجد في بلاد هندوستان القَقْنُس[3] وهو طائر عجيب للغاية جميل جداً له منقار

(ومنهم من قال انه نوع من الفأر) ولما عرفوا المنسوجات المذكورة المعمولة من المعدن المشهور باسم حجر الفتيلة (amiante) ذهبوا الى ان مادتها ريش ذلك الطائر الموهوم والسياح الايطاليون الذين كشفوا البلاد الاسيوية في القرن الثالث عشر والرابع عشر واوائل الخامس عشر للميلاد سمعوا من ابناء الشرق هذه العجائب عن طائر (smenda) .

(١) عاش في نيسابور واختلفوا في تاريخ وفاته والمرجح انه توفي سنة ٦٢٧ هـ (١٢٢٩—١٢٣٠ م) .

(٢) Mantic uttaïr, ou le Langage des oiseaux' poème de philosophie religieuse de Farid uddin Attar, publié en persan par M. Garcin de Tassy, Paris 1857 في الباب السادس والعشرين والابيات ٢٢٩٥ — ٢٣٢٨ (وفي ص ١٢٦—١٢٧ من الترجمة الفرنسية المطبوعة بباريس سنة ١٨٦٣ م .

(٣) ققنس بالفارسي وققنوس في الترجمة الهندوستانية لمنطق الطير .

طويل فيه نحو مائة ثقبة لكل منها صوت وفي كل صوت سرٌّ خاص . فاذا صوَّت بانغامه تحركت الطيور والسمك وسكنت الوحوش طرباً . ولازم فيلسوف هذا الطير وتعلَّم من صوته علم الموسيقى . وليس للققنس أنثى فيعيش منفرداً وبطول عمره الف سنة تقريباً وهو يعرف وقت موته وعند قربه يجمع حوالي نفسه اوراق مُقْل ويصوت بالانغام الحزينة المطربة فيموت حينئذ حزناً كثير من الحيوانات . وفي أوقاته الاخيرة يحرّك أجنحته وريشه فتسبب هذه الحركة ناراً تحرق الخشب والطائر ويصيرهما رماداً الا انه عند انطفاء النار يقوم من الرماد قَقْنُس صغير .

واستدلّ فريد الدين عطّار بهذه الحكاية على استحالة الفرار من الموت مهما كانت الحيل التي دبرها الانسان .

وحكاية فريد الدين عطار ادرجها مير علي شير نَوائي في منظومته بلغة جغتاي (اي التركية الشرقية) المسماة لسان الطير واسم الطائر فيها ققنوس[1] .

* * *

يتضح عند التأمل في هذه النصوص العربية والفارسية ان القَقَنّس والقُقْنُس والقوقنش والقوقنس وما اشبه ذلك في الحقيقة شيء واحد وان اقوال العرب والفرس فيه ناشئة عن جمع شيئين مختلفين :

(أ) الطائر المائي الكثير الوجود ببلاد اوربا المسمى (kyknos) باليونانية و (cycnus) او (cygnus) او (olor) باللاتينية و (cygne) بالفرنسية غير معروف بالبلاد الشرقية وهو من جنس الأوزّ الا انه أشد منه بياضاً جميل الصورة ذو عنق طويل جداً ظريف للغاية كان يُضرَب به المثل في صفاء البياض عند اليونان والرومان

---

(١) عاش مير علي شير نوائي في هراة في النصف الثاني من القرن التاسع للهجرة والخامس عشر للميلاد . اما النص المشار اليه هنا فانظر المجموعة الروسية المسماة (Mir Ali Chir) المطبوعة بلنينكراد سنة ١٩٢٨ م ص ٧٣ — ٧٤) .

ولم يزل يضرب عند الافرنج · وكان القدماء يزعمون[١] انه عند الاحساس باقتراب الموت يصوّت بالنغمات العجيبة الحسن المطربة فاستعملوا كلمة (cygnus) مجازاً بمعنى الشاعر الفائق وهو مجاز رائج ايضاً عند الافرنج الى القرن الماضي دلالةً اما على شاعر شهير واما على مؤلف موسيقي ماهر · وكذلك من العبارات السائرة في ايطاليا وفرنسا «اغنية الققنس» (le chant du cygne) والمراد بها آخر ما قال شاعر من المنظومات الرائقة او الخطيب من الخطب البليغة كأنه حسن الختام ·

وهذا الطير هو المقصود في كتاب البصائر النصيرية في علم المنطق[٢] للقاضي زين الدين عمر بن سهلان الساوي (بالسين) ص ١١ من طبعة مصر سنة ١٣١٦ هـ (وفي آخرها ١٣١٧) ١٨٩٨ م حيث قال المؤلف ايضاحاً لتعريف العرضي اللازم : « واما اللازم بسبب امر خارجي فمثل الاسود للزنجي والذكر والانثى للحيوان والابيض للطائر المسمى ققنساً[٣] » · ولا شك ان هذا المثال مأخوذ من كتب منطقية يونانية ويحتمل

(١) وان شك بعضهم (منهم Plinius الروماني) في صحة ذلك · اما ارسطوطاليس فاقتصر في كتاب الحيوان (في الباب الثاني عشر من الكتاب التاسع) على قول ان (kyknos) « من عادته ان يغرّد لا سيما اذا اقترب من الموت » ·

(٢) هو كتاب كاد يجهل تماماً قبل ان اكتشفه في مكتبة بيرونية المرحوم الاستاذ محمد عبده وطبعه وعلق عليه وقرأه في الازهر · و يقرؤه الآن بالجامعة المصرية صديقي وزميلي المحترم الشيخ مصطفى عبد الرازق ·

(٣) قال الشيخ محمد عبده في تعليقه : « وجد مضبوطاً في النسخة التي بيدي بضم القاف الاولى وسكون القاف الثانية وضم النون التي قبل السين ولم اجد لهذا اللفظ ذكراً في معجمات اللغة التي امكن الاطلاع عليها لا في مطولاتها ولا في مختصراتها ولا فيما استدركه بعض الباحثين في العربية من الغربيين ولم اجده ايضاً في كتب الحيوان العربية » · ثم قال ان احد المطلعين على اللغة اليونانية واللاتينية اخبره بوجود كلمة (kyknos) الخ · وفات الشيخ كلمة القُقنّس وما يشبهها في الكتب العربية واخطأ (وهو معذور) في ظنه ان الققنس هو البلشون او مالك الحزين اذ هذا هو (héron) بالفرنسية و (airone) بالايطالية

ان الساوي وجده في القسم المنطقي من كتاب الشفاء لابن سينا الذي لقبه في تلك الصفحة نفسها « افضل المتأخرين زمانا »[1].

(٢) الطائر الخيالي الشهير المسمى (phoiniks) باليونانية و (phoenix) باللاتينية و (phénix) بالفرنسية و (fenice) بالايطالية الذي كثر فيه الحكايات العجيبة عند اليونان والرومان وان قال بعضهم (ومنهم plinius) بعدم صحتها[2] فقالوا مثلاً انه موجود ببلاد العرب وانه وحيد في جنسه وان عمره خمسمائة سنة او ١٤٦١ او اكثر وانه يحرق نفسه بحطب عطر يجمعه لذلك ويقوم بعد الاحتراق التام من رماده شاباً مجدداً حتى جعله بعض النصارى القدماء من البراهين الدالة على امكان القيامة وصحتها واتخذوه في الرسوم رمزاً للنشور . والذين نقلوا الكتب اليونانية الى العربية بلا واسطة الترجمات السريانية[3] عربوا (phoiniks) (فونقس) او (فنقس) على أسلوبهم المعتاد في تعريب الحروف اليونانية ثم التبس قراءة الكلمات بالحروف العربية واتى النساخ بكل نوع من التحريف فكانت نتيجة الالتباس والتحريف ان كتبة العرب والفرس المسلمين أصبحوا غير مميزين بين (phoinix) (فونقس او فنقس) و (kyknos) (قوقنس او ققنس) ونسبوا الى طائر واحد بعد تحريف اسمه كل الخرافات المتداولة

و (Ardea cinerea L.) في اصطلاح علماء الحيوانات . ولم يصب في قوله في آخر التعليق : « وعلى هذا (اي الاشتقاق اليوناني) يكون الصواب في ضبطه كسر القاف الاولى » لان نطق حرف (y) كان باليونانية اقرب الى (u) منه الى (i) فنقله السريان بالواو دائماً وكتبوا قوقنوسا بمعنى (kyknos) .

(١) ولعل صاحب القاموس اراد المنطق من كتاب الشفاء في قوله المنقول في اول مقالتي هذه .

(٢) ولم يذكر ارسطوطاليس هذا الطير بتة في كتابه في الحيوان .

(٣) اقول هذا لان السريان نقلوا (phoinix) بصيغة فونيكس او فُونِكس او فونِكُوس فلو أخذت العرب هذا اللفظ منهم لكتبوا فونخس او فنخس لان الكاف بعد الحركة تنطق خاء تقريباً بالسريانية . انظر نص بَر بهلول النسطوري المذكور آنفا .

عند القدماء في شأن طائرين مختلفين احدهما حقيقي الوجود والآخر خيالي تماماً ·

وعلى كل حال فان القَقَنُّس المذكور في القاموس تحريف محض يجب إسقاطه من كتب اللغة وان نقل به حبيب افندي بسترس لفظ (phoiniks) لما عرَّب ترجمة (Larcher) الفرنسية لتاريخ هيرودوتس [1] وأظنه الكاتب العربي الوحيد الذي استعمل كلمة ققنّس ·

والذي يجب ادراجه في القواميس العربية بدل القُقنُّس اثنان : (١) قُوقُنُس او قُقْنُس وهو (kyknos) اليونان · (٢) فُورنِقْس اوفُنِقْس وهو(phoiniks) القدماء ·

ومما اراه ايضاً تصحيف قوقنس او ققنس (kyknos) كلمتان لم يذكرهما الجوهري المتوفى فيما بين سنة ٣٩٣ و٣٩٨ وانما فيدهما المتأخرون من علماء اللغة اوالخبيرون بعلم الحيوان ·

الاولى منهما قوق · قال ابن منظور الافريقي المتوفى سنة ٧١١ هـ (١٣١١ م) في لسان العرب ج ١٢ ص ٢٠٠ : « والقوق طائر من طير الماء طويل العنق قليل لحض الجسم وانشد * كأنك من بنات الماء قوق * » · وقال هذا ايضاً السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ (١٧٩١ م) في تاج العروس ج ٧ ص ٥٨ بزيادة « عن الليث » [2] قبل « وانشد » · وفي حياة الحيوان الكبرى للدميري (ج ٢ ص ٢٢١) من طبعة مصر سنة ١٣١١ : « القوق بالضم طائر مائي طويل العنق قاله في العباب [3] » ·

---

(١) في الفصل الثالث والسبعين من القسم الثالث من تاريخ هيرودوتس الشهير ترجم من الفرنسوية بقلم ··· حبيب افندي بسترس · بيروت سنة ١٨٨٦ — ١٨٨٧ م ·

(٢) يعني الليث بن نصر بن سيار الخراساني اللغوي المعاصر للخليل الفراهيدي عاش في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة · ولا أعرف هل اصاب صاحب تاج العروس بزيادته هذه ·

(٣) يعني العُباب الزاخر واللباب الفاخر لرضي الدين الحسن بن محمد الصغاني (او الصاغاني) المتوفى سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٢ — ١٢٥٣ م) · ولشغفه بالزيادات على كتب اللغة أصبح مسؤولاً عن أغلاط اتخذها المتأخرون وليس لها اصل سوى التحريف او التصحيف كما دلّ عليه الاستاذ غويدي في المقالة المذكورة آنفاً ·

اما القزويني فلم يذكره في كتاب عجائب المخلوقات .

ان وصف هذا الطائر يناسب القفنس تمام المناسبة . واقتصار المؤلفين ولا سيما الدميري على هذا الوصف بغير ادنى اشارة الى بلاده وعاداته ومنفعته — يدل على انه كان مجهولاً لاهل الشرق عديم الوجود في بلادهم كالقوقنس (kyknos) . فالارجح ان المراد بالقوق هذا الطائر .

اما الكلمة الاخرى التي أظنها ايضاً تحريفاً أُدخل غلطاً في بعض معاجم اللغة فالمقوقس حيث يزعم انه اسم طائر . ولا ذكر لهذا المعنى في الصحاح ولا في لسان العرب ولكن اتى به صاحب القاموس وشارحه .

قال صاحب تاج العروس (ج٤ ص٣٢٠) : « (طائر مطوّق طوقاً سواده في بياض كالحمام) عن ابي عمرو » . وهذا الطائر لم يذكره القزويني واما الدميري فمع كثرة كلامه في قصة المقوقس المصري الشهير اقتصر على ما وجده في القاموس فيما يخص الطائر قائلاً (ج٢ ص٢٧١) : « المقوقس طائر معروف مطوق سواده في البياض كالحمام » . فالغالب على ظني انه من تحريفات قوقنس (kyknos) ايضاً .

* * *

أختم هذه الملاحظات اللغوية بذكر ورود كلمة (قوقنوس) في كتب طبية عربية تسميةً لانواع خاصة من الشيافات (اي من الادوية للعين) وان اهملت كتب اللغة هذا اللفظ والمعنى تماماً . سمى أطباء اليونان أنواعاً من الشيافات (kyknos) تشبيهاً لبياضها ببياض الطائر فاتخذ كحالو العرب هذا الاسم اليوناني وكتبوه قوقنوس وهو مذكور غير مرة في كتاب العشر المقالات في العين المنسوب الى حنين بن اسحاق المتوفى سنة ٢٦٤ هـ (٨٠٩ م) وهو الكتاب الذي اعتنى بنشره وترجمته الى الانكليزية وشرحه الدكتور (Max Meyerhof) بمصر سنة ١٩٢٨ م . انظر ص١٨٧ و٢٠٨ — ٢١٠ من الاصل او (119 و142 - 140) من الترجمة .

رومية : كارلو نلّلينو

عضو المجمع العلمي العربي

جامع التواريخ

المسمى بكتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة

— ٢ —

حدثني ابو الحسين قال حدثني ابي وابو منصور عبدالله بن جبير النصراني قالا حضرنا مجلس ابن الفرات وقد عملت موءامرة لابن حبش العماني وكان يتقلد الذاب ونهر سابس(١) في ايام وزارة عبيد الله بن سليمان فأخذ ابو العباس وابو الحسن يناظرانه عليها الى ان الزم خمسة وعشرين الف درهم من ابواب صحيحة وطولب بادائها واخذ خطه يصححها(٢) فصحح خمسمائة وارىمين طول المدة والط(٣) بالمال . فقيد فلم ينفع وضرب سبع مقارع فلم يوءد . وكان اذ ذاك اذا خرج بانسان من العمال الى هذا القدر ونحوه من المكروه فعندهم انه النهاية . فاخرجه ابو العباس الى حضرته وطالبه بالمال فاقام على انه لا شيء معه وان ضيعته وقف . فقال له ويلك لا اعرف اجهل منك اذ كان هذا صبرك على المكروه واسلامك لنفسك وبذلك لها فلم لم تأخذ اصل الارتفاع فانا ما كنا نعمل بك اكثر من هذا . ولكن ان شئت فانا ادع عليك هذا المال واصرفك الى منزلك . ولكن بعد ان كشف للوزير صبرك على المكاره فلا تتصرف والله في ايامه ابداً ويذهب خبرك . قال فقلق من ذلك . وسأل ان يخفف عنه شيء من المال ليوءدي الباقي .

«١» «م . ع» : بضم الباء قرية بواسط اضيف نهرها اليها . «٢» لعله : بتصحيحها . «٣» «م . ع» : اي جحده .

فما .وحنا حتى تقرر امره على بعض المال واداه وانصرف .

حدثني (١) ابو الحسين قال سمعت ابا الحسن بن الفرات يقول ناظرت الجهظ احد العمال على موامرة قد عملناها له وكنت انا واخي جعلنا نأخذ خطه بباب باب فلما كثر ذلك قال لي سراً ليس الشأن في الخط . الشأن في الاداء . ستعلمون انكم لاتحصلون على شيء فسمعه عبيد الله لانا كنا في مجلسه فقال له اعد علي ما قلت فاضطرب فقال لابد ان تعيده فاعاد ذلك فقال اذاً لا تلي لي والله بعدها عملا ابداً قم عافاك الله الى منزلك . خرق ياغلام الموامرة قال فخرقت في الحال وانصرف الجهظ الى منزله فما صرفه عبيدالله بعد ذلك وشاع خبره فتحامى الناس كلهم استخدامه فهلك جوعاً في منزله حتى بلغ انه احتاج الى الصدقة .

حدثني ابو الحسين قال حدثنا ابو عبد الله زنجي الكاتب قال حدثنا ابو العباس بن الفرات قال كتب صاحب الخبر بمدينة السلام الى اسماعيل ابن بلبل في وزارته الاولى للمعتمد بان مغنية من جواري بدعة الكبرى غنت عند الحسن بن مخلد وهو اذ ذاك معطل بهذا الصوت فاستعاده وطرب عليه :

عادات طيء في بني اسد ري القنا وخضاب كل حسام

لهفي على قتلى النباج (٢) فانهم كانوا الذرى ورواسي الاعلام

« ١ » كتاب الوزراء ص ٧٧ . « ٢ » « م . ع » النباج ككتاب قرية على عشرة اميال من البصرة وبها يوم لتميم على بكر .

كانوا على الأعداء سيف محرق ولجارهم حرماً من الاحرام

لا تهلكي جذعاً فاني واثق برماحنا وعواقب الايام

فانهى اسماعيل ذلك الى المعتمد وقال هـذا يسمى عليك وتمنى لك الدوائر ويتربص بك فامر بنفيه الى مصر فكان مضيه اليها تلفه .

حدثنا ابو الحسين قال سمعت ابا القاسم سليمان بن الحسن بن مخلد قبل الوزارة يتحدث قال حدثني ابو عبدالله حمد بن محمد القنائي(١) الكاتب قال ابو الحسين وكان ابن اخت الحسن بن مخلد وكان قد خلفه دفعات على ديوان الخراج ومرة على ديوان الضياع ثم ولي اعمالا جليلة من العمالات والدواوين منها ديوان المغرب ومات وهو يتقلد ديوان الخراج والضياع العامة بالسواد وما يجرى فيه وقد رأيته وتمثلت بين يديه وسمعته يتحدث باشياء ولم اسمع هذا منه قال سليمان قال لي حمد سألت الخادم الذي تبع خالي الحسن بن مخلد الى ابن طولون لما نفي اليه عن السبب الذي دعا ابن طولون الى قتله فقال لما ورد عليه تناهى في اكرامه وبره واعظامه ثم انس به حتى نادمه وصار يشاوره في مهم اموره فشاوره مرات في خلع طاعة المعتمد فعظم عليه امر السلطان وخوفه من العصيان فقبل رأيه ثم طولب ابن طولون بمال الوظيفة التي كانت عليه فقال لابن مخلد ما رأيت اعجب من جهل هذا المخذول يعني الموفق يطالبني بالوظيفة وهو عاص على الخليفة. الى من احمل؟ فقال له لا تفعل

« ١ » « م . ع » : كذا في الاصل ولعله القنائي فقد قال ياقوت : دير قنا من اعمال النهروان نسب اليه جماعة من الكتاب والنسبة اليه قنائي وسيأتي في صفحة ٥٢ انه القنائي

فان الامور اليه والجيش معه وان منعته المال قصدك وحاربك فقام في نفس ابن طولون انه دسيس (١) للقوم عليه وقال لو كان هذا عدواً للقوم ماأشار علي بهذه المشورة وانما هو دسيس على ملكي ليأخذ البلدان مني لهم ويرهبني ويستخرج البلدان مني باللطف. فشكر له ثم امر بالقبض عليه وحبسه فكان جبانا فلم يحب مع ايحاشه له ان يفلت في وقت من الاوقات فدس اليه في شربة فقتله بها. وجدّ الموفق(٢) وانفذ اليه المعتضد في الجيش واخرج احمد بن طولون خمارويه اخاه(٣) لمحاربة المعتضد فتحاربا فانهزم كل واحد منهما من صاحبه وهو لا يعلم ان صاحبه قد انهزم فضرب الناس بهما المثل وقالوا صبي لقى صبياً وهكذا تكون محاربة الصبيان قال فلما جرت هذه الحال تندم احمد ابن طولون على قتل الحسن بن مخلد وقال صدقني فلم اقبل منه واتهمته .

حدثني(٤) ابو الحسين قال حدثنا ابو القاسم سليمان بن الحسن بن مخلد قال قال لي ناقد خادم ابي وثقته وكان يتولى نفقة ابي : ما رأيت اجسر من مولاي على اخذ مال السلطان ومن ذلك اني باكرته يوما وقد لبس سواده ليمضي الى دار المعتمد وهو اذ ذاك يتولى دواوين الازمة والتوقيع وبيت المال فقلت له قد صككت (٥) علي البارحة للمعاملين بالف وستمائة دينار وما عندي من ذلك حبة واحدة فقال لي يا بغيض تخاطبني في هذه الساعة

« ١ » «م.ع» : دسيس فعيل بمعنى مفعول هو من تدسه ليأتيك بالاخبار . «٢» م.ع : كذا في الاصل . « ٣ » الصواب : ابنه . «٤» كتاب الوزراء ص ٧٧ . «٥» م.ع : صك الرجل للمشتري صكاً . كتبه . وهو الذي يكتب في المعاملات والاقارير .

اين كنت عن خطابي البارحة لا وجه لها وجها ولكن اتبعني الى دار السلطان فتبعته ودخل الى المعتمد مع عبيد الله بن يحيى الوزير ودخل معهما احمد بن صالح بن شيرزاد صاحب ديوان الخراج فلما خرج قال لي امض الى صاحب بيت المال فخذ منه ما يسلمه اليك فظننته قد استسلف على رزقه شيئاً فمضيت الى صاحب بيت المال فسلم الي ثلاثين الف دينار فاستعظمت ذلك وعلمت انه ليس من الرزق وحملتها الى الدار وعرفته خبرهـا فقال لي أنفق منهـا ماوقّعت به اليك واحفظ الباقي فليس في كل وقت يتفق لنا مثل هذا ومضى للحديث ايام ودعا دعوة فيها صاعد بن مخلد واليه اذذاك عدة دواوين وجماعة من الكتاب واكلوا وناموا وانتبهوا فاذا كاتب من كتـاب احمد بن صالح ابن شيرزاد يستأذن فاستأذنت لدخوله على مولاي وكانوا قد بدأوا بالشرب فترك مولاي المجلس وخرج الى بيت خلو واستدعى الرجل فادخله اليه فسمعته يقول اخوك ابو بكر يقرأ عليك السلام يعني احمد بن صالح ويقول لك انت تعرف رسمي مع صاحب بيت المال وان محاسبته في سائر الاموال اليّ وانا اذا تمت ثلاثون يوماً وجهت صـاحبي الى حساب بيت المال(١) فحمله مع صاحب بيت المال لينظم دستور الختمة بحضرتي واصحح حكاياتها ونحن منذ عشرة ايام في هذا حتى انتظمت الحسبة ولم يبق الا ثلاثون الف دينار ذكر صاحب بيت المال انك خرجت اليه من حضرة امير المؤمنين فامرته بحملها الى خادمك ناقد ولست ادري في اي جهة صرفت ولا في اي باب ثبتهـا

«١» عند هلال وجهت حاجبي الى الخازن .

ولا ماالحجة فيهـا قال فاجـابه مولاي بلا توقف وقال ياأخي ابو بكر والله وقيع اسأل انا الخليفة في اي شيء صرف ما امر ان يحمل الى حضرته يجب أن يكتب في الختمة وما حمل الى حضرة امير المؤمنين في يوم كذا وكذا ثلاثون الف دينار قال فقام الكاتب خجلا ومر ذلك في الحساب على هذا فما تنبه احد عليه وحصل له المال قال ابو الحسين فقال لي سليمان بعقب هذه الحكاية ما رأيت لهذه الفعلة شبيهاً الا ماعمله ابي الفرات في وزارته الاولى فانه نصب يوسف بن فنحاس(١) وهارون بن عمران الجهبذين فلم يدع مالاً لابن المعتز ولا للعباس ابن الحسن ومن نكب وقتل في الفتنة وما صح من مال المصـادرين وغيرهم ممن يجري مجراهم الا أجراه على أيديهما دون يد صاحبي بيت المال العامة والخاصة(٢) وأفرد لذلك ابن فرجويه كاتبه يحاسبهما ولا يرفع لهما حساب الى ديوان من الدواوين فلما كان في السنة التي قبض عليه فيها كتب كتابا عن نفسه الى مؤنس الخادم صاحب بيت المال ذكر فيه انه حوسب يوسف بن فنحاس وهارون بن عمران على ماحصل عندهما من كيت وكيت حتى استغرق تلك الوجوه فكان الباقي قبلهما بعد الذي حمل الى حضرة امير المؤمنين أطال الله بقـاءه وصرف في مهمات أمر بها هو والسـادة أيدهم الله من الورق الف الف وأربع مائة وسبعين الف درهم

«١» م.ع : في تاريخ الوزراء فيحاس . « ٢ » م.ع : كذا في الاصل وذكر بعضهم ان المال يؤنث ولكن في تاريخ الوزراء بيت مال الخاصة والعامة .

وخمسمائة وستة واربعون(١) درهما وامر بقبض ذلك منهما وايراده بيت مال العامة (٢) فقبض مؤنس منهما تلك البقية ومضى الاصل كله لا يعرف في اي شيء صرف وكان مبلغه فيما ظنه الكتاب وكانوا يتعاودونه (٣) نحو الف الف دينار فان ابن الفرات فاز بجمعها(٤) ولم يقم بها حجة عليه قال ابو الحسين فحدثني ابي بعد ذلك قال لما قلدني علي بن عيسى في وزارته الاولى ديوان الدار الجامع للدواوين امرني باحضار هذين الجهبذين ومطالبتهما بختماتهما لما كان حصل في ايديهما في وزارة ابن الفرات الاولى من الجهات التي تقدم ذكرها فاستدعيتهما وطالبتهما فاحالا(٥) ان ابن الفرات أخذ حسابهما ولم يدع عندهما نسخة منه فامر بحبسهما وتهديدهما ففعلت ذلك فاحضراني حسابا مبتورا ذكرا أنهما وجداه فرأيته غير منتظم فلم أزل أرفق بهما الى ان أقرا انه قد وصل اليهما من فضل الصرف فيما بين ما ورد عليهما وبين ما أنفقاه مائة الف درهم فجملتها عشرة آلاف دينار وقررت أمرهما عليها وأخذت بها خطوطهما فلم يقنع علي بن عيسى بذلك وأخذهما من يدي وسلمهما الى حمد بن محمد وكان اليه ديوان المغرب وأمر ان يتتبع أمرهما بنفسه وكان حسن الكتابة ولم يعرفه اني أخذت خطهما بشيء فتتبع حمد ذلك فلم يجد في الحساب الا احالات على حمد الى الخليفة والسادة وأشياء صرفت الى خاص ابن الفرات

«١» م.ع : الصواب واربعين ليتسق الكلام . «٢» م.ع : في تاريخ الوزراء : بيت مال الخاصة . «٣» م.ع : كذا في الاصل ولعله يتعاورونه اي يتداولونه بالعد او التخمين «٤» لعله بجميعها . «٥» م.ع : في تاريخ الوزراء فاحالا على ان .

فقال له حمد هـذا كله مسروق والقوم معهم حجج بالابراء وما عليهم طريق وابن الفرات كان أَجلد من ان يدع هؤلاء يفوزون بحبة من المال فردهما الي وقال اجتهد في ان تأخذ منهما مائتي الف درهم فقلت لايمكن ذلك فقال اعمل على انك طالبتهم(١) بمرفق لنفسك بتمام مائتي الف درهم فقلت له فاذا فعلت هذا فاي شيء أعمل أنا لنفسي قال خذ منها عشرين الف درهم والزمهما مائة وثمانين قال فخرجت وجددت بهما الى ان أَلزمتهما ذلك وأَخذت لنفسي منه ما قال فلما فرغنا من ذلك أَخذنا بها خطوطهما واخذنا لهما خطه بالبراءة من ذلك فقال لي علي بن عيسى سأريك موضعي انا من العمل وان للرئيس في كل أمر موضعاً(٢) لا يقوم فيه احد مقامه فاستحضرتهما الى حضرته وانا في مجلسه فقال لهما تريدان مني ان أُزيل عنكما تبعة ان لم ازلها بقيت عليكما وعلى ورثتكما ابد الدهر لست افعل هـذا الا بشيء يقرب لا ضرر عليكما فيه وهو اني احتاج في كل هلال الى مال أدفعه في ستة ايام من ذلك الشهر الى الرجالة ومبلغه ثلاثون الف دينار وربما لم يتجه في اول يوم من الشهر ولا الثاني وأُريد ان تسلفاني في أول كل شهر مائة وخمسين الف درهم ترتجعانها من مال الاهواز في مدة الشهر فان جهبذة الاهواز اليكما فيكون هذا المال سلفاً لكما(٣) أبداً واقفاً لاضيف الى هذا المال الوظيفة التي على حامد التي(٤)

«١» م ع : كذا في الاصل والصواب طالبتهما . «٢» بالاصل : الرئيس في كل موضع . والصواب عند هلال . «٣» م ع في تاريخ الوزراء سلفا واقفاً لكما الخ .
«٤» بالاصل : الى ان . والصواب عند هلال .

رد في أول كل شهر وهي عشرون الف دينار فيكون ذلك بازاء مال القسط الاول من النوبة فيخف عني ثقل ثقيل فتأبيا ساعة فلم يفارقهما حتى استجابا لذلك فقال لي علي بن عيسى كيف رأيت فقلت ومن يفي بهذا الا الوزير أيده الله تعالى قال وكان علي بن عيسى اذا حل المال وليس له وجه استسلفه من التجار على سفاتج قد وردت من الاطراف فلم تحل (١) عشرة آلاف دينار بربح دانق ونصف فضة في كل دينار وكان يلزمه في كل شهر الفان وخمسمائة درهم أرباحاً فلم يزل هذا الرسم يجري على يوسف بن فنحاس وهارون ابن عمران ومن قام مقامهما مدة ست عشرة سنة وبعد وفاتهما لانهما ما صرفا الى ان ماتا فكانا قد تقلدا في أيام عبيد الله بن يحيى بن خاقان وكان السلطان لا يرى صرفهما ليبقى جاه الجهبذة مع التجار فيقرض التجار بالجهبذ اذا دفعت الضرورة ومتى صرف الجهبذ وقلد غيره (٢) لم يعامله التجار ووقف امر الخليفة .

حدثنا ابو الحسين قال حدثني ابو بكر محمد بن جني الكاتب وكان ابوه مغنياً وهو من أغنياء الكتاب قال حدثني ابن ثوابة الكاتب قال حدثني أبو الفرج بن نجاح بن سلمة عن ابيه عن الفضل بن مروان قال كنت أتولى مجلس الحساب من قبل صاحب ديوان الرشيد وكان يجيئنا الى الديوان شيخ من بقايا كتاب بني امية وكان صاحب الديوان يقول لنا هذا اكتب اهل زمانه وكان يلبس دراعة وقلنسوة كساكاسية (٣) النصارى وخفاً أحمر

«١» م . ع كذا في الاصل ومثله في تاريخ الوزراء . «٢» م.ع لعل الاصل ولم يعامله او . ووقف امر الخليفة . «٣» م.ع : كذا في الاصل . ولعله كاكسية .

وكان هذا زي المتمطلين من الكتاب إذ ذاك وكان صاحب الديوان يكرمه جداً فصار إلي في يوم من الايام لحاجة عرضت له وأنا متشاغل بعمل مهم قد طلبه الرشيد وانا جالس حيال صاحب الديوان اعمله فقصرت في حق الشيخ ولامني صاحب الديوان على تقصيري به ووبخني فاعتذرت اليه بشغل القلب فلما كان بعد ايام جاءني فزدت في اكرامه وقمت اليه وجلست بين يديه فاقبل علي صاحب الديوان فقال احسبك عاتبت فتانا على تقصيره أولا ثم أقبل علي وقال يافتى كنا نعد الصناعة نسباً والنعمة نسباً واللغة نسبا والنحلة نسبا .

حدثنا ابو الحسين قال حدثنا ابو عبدالله الياقطائي قال حدثني ابو الفضل عون بن هارون بن مخلد بن أبان وكان كاتب المأمون على ديوان الضياع قال ميمون سمعت الفضل بن مروان يقول لا ينبغي لاحد ان يحقر احداً ولا يأيس (١) من علوه فاني كنت في حداثتي اتوكل لهرثمة بن أعين في مطبخه ايام الرشيد وكان بخيلا وكان له خادم يشرف على مطبخه وأجرى علي خمسة عشر درهما في الشهر ووظيفة خبز فلما كثر توفيري عليه صيرها عشرين درهما وكنت لا آكل من مطبخه شيئاً فسأل الخادم عن اكلي فعرفه اني لا آكل فامره ان يطعمني من المطبخ كل يوم ويوفر الوظيفة على منزلي فدعا يوماً دعوة عظيمة فوفرت عليه في الاسعار الف درهم وعرضت عليه بذلك عملا وسره وحسن موقعه منه وكان بخيلا جداً فقال يوماً قد استحققت الزيادة

«١» م ع : أيس يأيس بغير همزة بمعنى يئس .

فكم تحب ان أزيدك فقلت لا أقل من عشرة دراهم اخرى فقال هذا كثير ولكن اربعة دراهم فأيست من خيره واتفق له بعد ذلك خروج عن مدينة السلام فتعاللت عليه ولم اتبعه ولزمت الديوان وتعلمت فصرت كاتب مجلس في ديوان الرشيد وكان ذلك اول اقبالي وتخرجت وزادت حالي مع الايام فلما ولي المأمون وعظم من أمر المعتصم كان المعتصم شديد المحبة للصيد وكانت فتنة محمد المخلوع قد صرفت ما كنت جمعته من «١» ضياع وبساتين بالبردان «٢» وصاهرت بعض تنائها «٣» واجتمعت لي حال فلما انجلت الفتنة كنت من وجوه البردان فاجتاز بها المعتصم منصرفاً من صيده مسرعا وليس معه من اصحابه كثير «٤» احد فاجتاز في الطريق وانا واقف على بابي فتوسمت فيه الجلالة وقدرته احد وجوه القواد وكان لي وعد على عامل البلد ان يكون ذلك اليوم في دعوتي وقد اعددت له طعاماً وفيه جداء وحلواء وفاكهة كثيرة وثلج استدعيته من بغداد وكان قبل ذلك بساعة قد جاءني خبر العامل انه عرض له مهم في السواد فخرج لوقته فلما رأيت المعتصم وتوسمت فيه الجلالة قلت لم لا اخلف «٥» على هذا القائد واضيفه عندي على هذا الطعام المعد قال فكلمته وسألته النزول عندي فاجاب ونزل واكل وشرب وانفذت في الحال فاستدعيت له قيانا وجلس يشرب وقد انبسطت بين يديه وخدمته

«١» الصواب في . «٢» م٠ع : هي قرية على سبعة فراسخ من بغداد .

«٣» م٠ع : كسكان جمع تانىء وهو المقيم ببلده راجع صفحة ٢٨ من المجلد الرابع من مجلة المجمع العلمي . «٤» م٠ع : كذا في الاصل . ولعل صوابه الكثيرين احد .

«٥» م٠ع اخلف عليه . عوضه ولعله احلف بمعنى اقسم وهو الاظهر .

فنحن نشرب اذ(١) الجيش في طلبه وعرفوا خبره واحاطوا بالدار فعرفت حينئذ انه اخو الخليفة فهبته فبسطني وسألني عن شرح حالي فعرفته فقال لا بد ان تجيء معي الى بغداد وتخدمني ولم يدعني حتى اجتذبني ودخلت معه الى بغداد وقلدني بعض اموره ثم تزايدت حالي عنده الى ان جمع لي جميع امره ورياسة كتابه ثم خلطني بخدمة المأمون وقلدني ديوان الخراج مضافاً الى كتبة اخيه ثم رقيت الى الوزارة من تلك الحال التي كنت عليها مع هرثمة قال ابو الحسين ما رأى(٢) في الدولة العباسية من الكتاب من اتصل تصرفه منذ نشأ الى ان مات وترددت ولا بعد(٣) الوزارة لديوان الخراج وديوان الضياع — احد من غير ان يتعطل غير الفضل بن مروان وصادره المعتصم على اربعين الف الف درهم فاداها بغير مكروه. وسمعت حامد بن العباس يحكي انه سمع صاعداً يقول حدثني احمد بن اسرائيل قال حدثني الفضل بن مروان قال ما في الارض اجهل من وزير يطلب الخليفة منه مالا وهو في ولايته فيعطيه اياه فانه يطمعه في نعمته وانما يدفع النكبة مدة ثم تحدث وقد ذهب المال. فمن ذلك ان المعتصم لما خرج يغزو الروم وانا وزيره استخلفني على سر من رأى واستخلف بحضرته محمد بن الفضل الجرجرائي (٤) فلما عاد طمع فيّ فقال لي قد وردت والمال(٥) والجيش مستحق

«١» لعله: اذ اتى. م ع الظاهر انه انبث الجيش اي تفرق.

«٢» لعله رؤي.

«٣» الجملة محرفة ولعل الصواب وتقلد الوزارة بعد ولايته.

«٤» بالاصل الجرجاني. «٥» لعله سقط: قد ذهب.

فاحتل (١) لي مائة الف دينار من مالك وجاهك ففعلت فلما مضى شهر طلب مني على هذا السبيل خمسين الف دينار ففعلت فطلب في الدفعة الثالثة بمثل هذا الوجه ثلاثين الف دينار فوعدته بها وادفعه (٢) اياماً ثم حملتها اليه فبلغني عنه انه قال لابنه الواثق هذا النبطي ابن النبطية اخذ مالي جملة وهو ذا يتصدق علي به تفاريق . ثم (٣) قبض عليه بعد ايام واخذ منه اربعين الف الف درهم .

حدثني ابو الحسين قال حدثنا ابو بكر محمد بن عبد الملك التواريخي وكان شيخاً قد عني بجمع التواريخ فلقب بها وكان يجلس في الجامع الى جانب الزجاج ويعظمه قال سمعت المبرد يقول كنت اصحب الفضل بن مروان فذكر بحضرته في ايام الواثق عظم بناء احمد بن الخصيب بسرّ من رأى وانه استعمل في سقف دهاليز داره سبعين قارية ساج والقارية (٤) ساجة عظيمة تستعمل صحيحة . فقال الفضل ما كانت لي في خدمة لذة في بناء ولا فرش ولا غلمان ولا جوار ولا مفاخرة بمروءة وانما كانت لذتي في العمارة والتوفير ولهذا اتصلت مدتي في صحبتهم وتمهدي وقد وليت للمأمون ديوان الخراج فوجدت الاهواز قد اختلت ببثق اسوء (٥) ابطل العمارة فانفقت عليه مائة

«١» م ٠ ع عدى احتال بنفسه على حد قول الحماسي :

اذا ما أتت من صاحب لك زلة فكن انت محتالا لزلته عذرا

«٢» م ٠ ع الظاهر ودافعته . «٣» م ٠ ع الظاهر ان هذا من كلام احمد بن اسرائيل الراوي عن الفضل . «٤» م ٠ ع لم نعثر على القارية بهذا المعنى . «٥» م ٠ ع الظاهر ان الاصل ببثق سد او أسداد جمع سد وهو بناء يجعل في وجه الماء .

الف دينار وجددت في عمارة النواحي . وكانت كوَر الاهواز اذذاك قد ارتفعت باربعة وعشرين الف الف درهم للسلطان فضمنتها له بثمانية واربعين الف الف درهم حاصلة للحمل .

حدثنا ابو الحسين قال حدثنا ابو الفرج محمد بن جعفر بن حفص الكاتب قال حدثنا ابي قال سمعت نجاح بن سلمة يقول ان السبب في علو حال عبيد الله ابن يحيي بن خاقان مع المتوكل ان اباه يحيي بن خاقان بن موسي تقلد ديوان الخراج في ايام المتوكل فقلد ابنه ابا محمد عبد الله مجلساً من مجالس الديوان ولم ير عبيد الله اهلا لمثل ذلك فغضب على ابيه وصار (الى) الفضل بن مروان وهو يتقلد ديوان الضياع فلزمه وخط بين يديه وكانت ارمينية تجري في ديوان الضياع وكان على اهلها مقاطعة فضلها مال جليل فامتنع الفضل بن مروان من اقتضائها(١) لهم وعرض عليه مرفق مائة الف درهم فابى قبولها وطرحها(٢) نفوسهم على اكثر الوجوه بسر من رأى فلم يجب احد الى ذلك فلجأوا الى عبيد الله بن يحيي وسألوه مسألته لما ظهر من اختصاصه به ونفاقه عليه فخاطبه في امرهم فتذمم من رده لانه كان يعمل معه بالرزق (٣) ولا له نفع وكانت حاله قوية وانما اراد التصرف مراغمة لابيه وجعل ذلك كالمرفق له والصلة فأجابه وامضى المقاطعة فحمل اليه القوم خمسة آلاف دينار فردها وقال ما كنت لآخذ على معروفي ثمناً فلما خرجوا الى ارمينية أحبوا مهاداته

«١» الصواب امضائها . «٢» الصواب وطرحوا .
«٣» لعله بلا رزق .

ومكافأته فاستعملوا له فرش بيت ارمني ببساط عظيم ومصليات والنخاخ (١) ومساور (٢) ومخاد (٣) ودست وستور وأذهبوا الجميع وكتبوا عليه كنيته واسمه ولم يكن رأى (٤) قط مثله حسناً وجلالة وحملوه اليه واتفق انه وكّل المتوكل تلك السنة بالطرق وامر ان لا يدخل شيء من الامتعة او يعرض عليه فعرض عليه البيت في جملة ما جيء به من أرمينية فاستهوله وقال من هذا الرجل فقالوا هو (٥) عبيد الله بن خاقان قال واي شيء اليه حتى يستعمل له هذا العمل لعل هذا مرفق لابيه فقيل له ان ارمينية تجري في ديوان الضياع ولا معاملة بينه وبين ابيه فاستشرح الصورة ونقر (٦) عليها الى ان حدّث الحديث على صحته فاستحسن ذلك من فعل عبيد الله وامر بتسليم فرشه اليه وقال هذا فتى يدل فعله على كبر همته فلما صرف محمد بن الفضل الجرجرائي (٧) عن وزارته قال قد استغنيت عن وزير لان اصحاب الدواوين عرضون عمالهم عليّ والتاريخ يجعل باسم وصيف التركي واجرى الامر على ذلك مدة ثم انه احتاج الى كاتب يكون بين يديه في أبنيته والتوقيعات في المهم الذي يامر به من حضرته فيها وفي غيره الى اصحاب الدواوين وغيره (٨) فامر ان يطلب له حدث من اولاد الكتاب ينصبه لذلك فسمي له جماعة منهم عيسى بن داود بن الجراح وابو الفضل

«١» م.ع في اللسان النخ بساط طوله اكثر من عرضه وهو فارسي معرب وجمعه نخاخ وفي التاج انه بالفتح . «٢» م.ع جمع مسور ومسورة وهي متكأ من أدم وهي المساند . «٣» م.ع جمع مخدة وهي الوسادة . «٤» يريد رؤي . «٥» بالاصل ابو . «٦» م.ع المعروف نقر عن الشيء اذا بحث عنه . «٧» بالاصل الجرجاني . «٨» م.ع هكذا في الاصل .

ابن مروان وجماعة وكان فيهم عبد الله وعبيد الله ابنا يحيي بن خاقان فحين مر على سمعه ذكر عبيد الله ذكر حديث الفرش فاختاره ولم يزل حاله يرقى معه الى ان استوزره .

« للبحث صلة »



المحاضرة الاولى

الادب (١)

« أفقه . فعله . غايته »

فكرت في شيء من الكلام أمهد به السبيل الى دراسة الأدب في خلال هذه السنة ، قلت : دراسة الادب ، وكان يجب عليَّ ان أقول : أحاديث الأدب . لان كلمة الدراسة تدل على شيء من جهد الذهن وعنت الفكر وما ينبغي للادب ان يكون الا ألهية يتلاهى بها العقل ، لكنها ألهية شريفة لا تشبه غيرها من الألاهي ، ما ينبغي للأدب ان يكون الا لذة الفكر وراحة البال . فكرت في شيء من الكلام أستعين به على الاستهلال ثم عدلت عن التفكير وقلت ما قاله الاستاذ « برونتير Brunetière) في اول محاضرة من محاضراته : لعلكم تعترفون بان المقدمات الطويلة لا تكون في كل حين أروع المقدمات وأفضلها . فلنشرع في حديثنا الاول دون الافاضة في التمهيد .

***

قلت : الأدب ألهية ولكنها شريفة . واذا أردنا ان نعرف مبلغ شرفها لزمنا ان ننظر الى أفق الأدب المديد . فمتى أدركنا العالم الذي يحيط به الأدب علمنا مقدار اتساع أفيائه وانبساط سلطانه .

قال « اناتول فرانس ، Anatole France » في مقال له في معجمات اللغة :

اني أحب معجمات اللغة . فانا لا احبها لمجرد فائدتها العظيمة ولكني احبها لانها تحتوي على شيء جميل فخم . انظر الى معجم غازية او الى غيره من المعجمات وتصور انك ترى روح وطننا كله في هذا المعجم ، ليتصور ذهنك ان في هذه الصفحات التي يبلغ عددها الف صفحة اوالفاومائتي صفحة عبقرية فرنسا وطبيعتها . ليتصور ذهنك ان فيها افكارنا

---

(١) سلسلة المحاضرات التي القاها في كلية الآداب في دمشق الاستاذ شفيق بك جبري عضو المجمع العلمي ومدير الكلية المذكورة . وقد عزمت مجلة المجمع العلمي على نشر هذه المحاضرات كلها متتابعة .

وافكار اجدادنا وافراحنا وافراحهم واعمالنا واعمالهم وآلامنا وآلامهم . ليخطر ببـالك ان في هذا المعجم آثار الحياة العامة وحياة الدور والمنازل ، آثار الذين استنشقوا الهواء الصالح وشموا النسيم العليل الذي نشمه اليوم . ليخطر ببالك ان كل كلمة من كلمات المعجم يقابلها فكر من الافكار كان فكر طائفة من البشر لا يعلم عددهم . وعاطفة من العواطف كانت عاطفة جمهور من الناس لا يحصى مقدارهم . ليهجس في صدرك ان كل هذه الكلمات المجموعة انما هي لحم الوطن والبشر ودمهما وروحهما » .

اني احب ان اقتبس قول اناتول فرانس في اللغة فأقوله في الأدب نفسه فاذا قلنا في الادب ما قاله اناتول في اللغة ، اذا قلنا على سبيل التجوز ان الادب هو روح الوطن وعبقريته ادركنا حينئذ معنى كلامنا : الادب ألهية شريفة لا تشبه غيرها من الالاهي .

* * *

كنت أطالع رواية من الروايات فعلقت بذهني عبارة قيدتها في دفتري . قالها شيخ ايطالي في حض فتى على درس اللغة اللاتينية :

« ان هذه اللغة الشريفة قد أنستني آثارها المنقطعة النظير آلامي وشجوني في معظم الاوقات . كنت ياسيدي أتغدى وماغدائي الا صفحة من«تاسيت» واتعشى وما عشائي الا اهجية من « جوفنال » .

لقد ادرك هذا الشيخ غاية الادب الادراك كله ، ادرك ان الادب يفرج الغم ويكشف الكرب وينشيء في العقول لذة لا يعدلها كثير من لذات الدنيا فهي لذة هادئة لا يضطرب صاحبها ولا يقلق . اني على رأي الذين يريدون ان لا يكون الادب موضوع علم وانما أريد ان يكون الادب كما قال عنه الاستاذ (لانسون Lanson) رياضة وذوقاً ولذة . ولا بأس بان اتلو عليكم فصلاً للاستاذ (لانسون) في طبيعة الادب وفعله :

« الادب لا يعلمه المرء علماً ولا يدرسه دراسةً وانما يمارسه ويحرثه ويحبه واصدق كلام فيه انما هو كلام (ده كارت Descartes) الذي قال : قراءة الكتب الصالحة حديث يحدثك به اشرف رجال القرون الخالية ولكنه حديث لا يعرض عليك فيه اولئك الشرفاء الا احاسن افكارهم » .

ان الرياضيين — وانا اعرف طائفة منهم — الذين يلهيهم الادب فيذهبون الى المسارح و يقرأون الكتب على سبيل التسلي انما هم أقرب من الصواب من هؤلاء الادباء الذين لا يقرأون الكتاب قراءة ولكنهم يجردونه تجريداً و يظنون انهم يصيبون الاصابة كلها اذا جعلوه ابواباً . خلق الادب لينشئ لذةلنا ولكنها لذة تروض قوانا العقلية فيخرج العقل من رياضة الادب اقوى سلطاناً وامرن طبيعة واغنى مادة وعلى هذه الصورة يكون الادب ثقاف الباطن ، هذه هي حقيقة فعله .

وللادب الفضل الاكبر في تدريب الناس على ذوق لذة الافكار انه يروض الفكر فيجد المرء في هذه الرياضة مسرّته وراحته وتجدد قواه . انه يذهب تعبنا الذي نتعبه في ممارسة الاعمال و يرفع العقل فوق كل واجب وفوق كل مصلحة وفوق كل وهم . اصبحت الفلسفة في عصرنا هذا ضرورة العقل ولكن الفلسفة لا يستطيع درسها كل واحد منا ، اما الادب فانه يعم الفلسفة . بالادب تستفيض في الجماعات المذاهب الفلسفية الكبرى التي ترقي هذه الجماعات وتغير اوضاعها . الادب هو الذي يتعهد النفوس التي اثقلتها تكاليف الحياة واغرقتها مشاغل المادة فيحملها على الاعتناء بالمسائل السامية التي تستولي على الحياة وتجعل لها معنى او غاية . لقد ضعف الدين في كثير من رجال العصر وبُعد أفق العلم عن كثير من الناس فالادب وحده هو الذي ينزع بنا عن الاثرة الضيقة او عن الحرفة التي تغرس فينا غرائز الحيوانية » .

هذا ما قاله الاستاذ (لانسون) في طبيعة الادب وابلغ كلامه : الادب ثقاف الباطن . من هذا يتبين لنا ان الثقافة الادبية مجردة اي لا غاية مادية لها وكأن الذين وضعوا « قرار» انشاء مدرستنا قد فطنوا لذلك واحبوا ان ينبهوا عليه فقالوا : غاية مدرسة الادب العليا تثقيف الجمهور تثقيفاً مجرداً وتعليمهم علماً عالياً في نظام الادب وهم يعنون بذلك ان الثقافة الادبية لا تكون غايتها الكسب فلا يدرس الانسان الادب ليعيش به كما يدرس الحقوق او كما يدرس الطب مثلاً وانما يحصل الادب للذته .

اراد احد شباب الفرنسيس ان ينصرف الى الادب فسأل (فلوبر) عن رأيه في ذلك فقال له (فلوبر Flaubert) :

« الاخلاص يدفعني الى ان أبين لك ان استثمار عملك امر صعب جداً ان لم يكن

متنعماً ، انك لا تزال ناعم الشباب فاعمل واعمل كثيراً واعتزل في عملك ولا ترج ان تكون لك مكافأة ولا تفكر في نشر ماتكتب ، تقبل طريقتي فقد كان عمري سبعاً وثلاثين سنة لما نشرت (مدام بوفاري) فاذا خطر ببالك ان تستخرج فائدة من آثارك ضللت وكنت من الخاسرين فلا تفكر الا في الفن ذاته وفي كماله وما عدا ذلك فهو تابع له .

لا تظن ان حياة اديب مثلي ناضرة بالازاهير فاذا ظننت شيئاً من ذلك كنت من الواهمين ، اذا كان حبك للادب خالصاً فحصّل الادب لنفسك قبل كل شيء واقرأ كثيراً كتب (المدرسيين) وروض قلمك على كتابة اشياء شعرت بها وعلى وصف البيئة التي تأنس بها » .

علمنا (فلوبر) ان نحصّل الادب لانفسنا دون ان نرجو مكافأة ، ينبغي لنا ان نحصل الادب لمسرة قلوبنا ورياضة عقولنا وتهذيب عواطفنا ، فاذا لم نكن هذه غايتنا لم نستفد من الادب ، اذا كنا نتوخى الكسب في تحصيل الادب انحط ادبنا عن منزلته الرفيعة وصار صناعة من الصناعات التي يمارسها الانسان ليعيش في هذه الدنيا والادب اجل من ان يكون حرفة ، اننا نحصل الادب لنذوق لذة الحياة ، اننا نحبه كما كان الشيخ الايطالي يحب آثار اللغة اللاتينية . اننا نحبه لانه ينسينا الآلام والشجون على انه قد يجوز ان يفيدنا الادب فوائد عظيمة ولكن لا ينبغي ان تكون هذه الفوائد غاية الادب وانما نجنيها على طريقنا في نزهة العقل كما نجني الورد والريحان على طريقنا في نزهة البدن . اننا لا نتنزه لنقطف الورد ولكننا نتنزه لنروض أجسامنا وكذلك لا ندرس الادب لنعيش به ولكننا ندرسه لنروض به عقولنا .

قلت : قد يفيد الادب فوائد عظيمة ، واذا سمحتم لي قرأت لكم عبارة من مقال لي عنوانه : « الكتاب ملوك » ومن هذا المقال يتبين لكم ان الادب قد رفع كثيراً من الناس .لكن المنفعة يجب ان تأتي على سبيله كما يأتي الورد والريحان على سبيل المتنزهين .

* * *

اما وقد فرغت من الحديث الاول فما احب ان اخرج من مجلسنا هذا قبل ان يتأكد عندي اننا ادركنا غاية الادب . ما احب ان اخرج من هذا المجلس قبل ان اثق باننا علمنا ان الادب انما هو : رياضة وذوق ولذة لا نتفرغ له لغرض من اغراض

الدنيا فهو اجل من ان تكون غايته الكسب وانما نمارسه لندرك به جمال هذا العالم اننـا نمارسه لنفرج به غم هذه الحيـاة . يقول اناتول فرانس في هوغو في معرض النقد : عاش فيكتور هوغو ثملاً تسكره الالوان ورنات الاصوات وقد اسكر العالم بذلك . فاذا جاز لي هذا التعبير قلت : الادب يسكر بالوانه ورنات الفاظه فهو نزهة عقولنا ونعم النزهة يشحذ الطباع ويبهج النفس ويعمر الصدر . اني لا ارى اشتطاطاً في الحكم على الادب يشبه اشتطاط تاسوني (Tassoni) الذي كان يعتقد ان الادب مضر بالجماعة والبشرية . اي شيء احسن ترويضاً لمداركنا من الادب . اي شيء احسن تهذيبـاً للاهواء منه . اي ثقافة اعمل في التقريب بين البشر من الثقافة الادبية . واذا لم يكن لادبنا في هذا العصر عاقبته المحمودة فهذا ناشيء عن انه لا يزال في عزلة عن الانواع الادبية الحديثة التي فعلت فعلتها في الامم . فاذا كان لحديثنا خلاصة فهذه خلاصته :

الادب الهية شريفة وحسبها شرفاً ان يكون موضوعها روح الوطن وعبقريته .

في ٩ تشرين الثاني سنة ١٩٢٩

المحاضرة الثانية

ثقافة الذوق

دراسة المصادر الادبية · الانفراد بالرأي في الادب

ما أظن انكم نسيتم ما حدثتكم به في الاسبوع المنصرم ، ما أظن انكم نسيتم أفق الادب وفعله وغايته ، اني اعتقد الاعتقاد كله ان مطافكم في هذا الافق الفسيح يوطئ لكم السبيل الى الاحاطة بروح وطنكم وعبقريته ، واذا قلت روح لوطن وعبقريته عنيت بذلك ثمرات قرائحه ونتائج خواطره من منبثق فجره الى يومنا هذا · اني اعتقد الاعتقاد كله ان المطاف في هذا الأفق يدخل السرور على القلوب ويثقف البواطن ويهذب العواطف وليس بقليل ان ينسلخ المرء من حيوانيته ويحلق في جو أعلى من جو البشرية والادب هذا فعله في الامم · فاذا كانت غايته مجردة وثقافته خالصة نجح واثر : هذا أفقه ، وهذا فعله ، وهذه غايته · ما اظن انكم نسيتم شيئاً من ذلك ·

غير اني أتوقع بعد ان بينت لكم أفق الادب وفعله وغايته على سبيل الايجاز وعلى قدر ما سمح به الزمن ، غير اني أتوقع ان تقولوا لي : أدركنا هذا كله ، ولكن كيف السبيل الى ذوق لذة الادب ، كيف السبيل الى الاتصال بهذا الافق والعلم بهذا الفعل والخلوص الى هذه الغاية ، ولو قلتم لي شيئاً من ذلك لوقع القول مني موقعه لان السر كل السر في تمهيد هذه السبيل قال الاستاذ لانسون :

« لا أكاد أفهم كيف يدرسون الادب من دون ان تكون غايتهم في دراسته ثقافتهم وحدها ، لا أكاد أفهم كيف يدرسونه من غير ان يكون مرمى فكرهم الالتذاذ بالادب ، لا ريب في ان الذين يتفرغون لتدريس الادب يلزمهم ان يجمعوا معارفهم في نظام واحد وان يهيئوا طرائق في التدريس وان تكون وجهتهم أصح وأوضح من وجهة هواة الادب الصغار · ولكننا لا ينبغي لنا ان نذهل عن امرين : الامر الاول ان أستاذ الادب الذي لا يعنى بتنمية الذوق الادبي في تلاميذه ولا يستميلهم الى ان يجثوا كل حياتهم في الادب عما يشحذ افكارهم ويسليهم عن همومهم لا يكون أستاذاً صالحاً ، هذا هو الهدف الذي يجب علينا ان نرمي اليه لا ان نعد للطلاب جوابات الى يوم الامتحان ،

والامر الثاني لا يستطيع أستاذ الادب ان ينفع بتدريسه ان لم يكن هو نفسه من هواة الادب قبل ان يكون من العلماء ، لا يمكن ان يثمر تدريسه اذا لم يبدأ بتثقيف نفسه بهذا الادب الذي ينبغي له ان يجعله ثقافاً لغيره ، لا يمكن ان يؤدي تدريسه الى الخواتيم الحسنة اذا كان نقب عن الآثار الادبية وجمعها ، ولم تكن غايته في تنقيبه وجمعه زيادة ادراكه للادب وزيادة لذته بعد هذا الادراك » .

ما أصح هذا الكلام ! ما ألصقه بالحقيقة ! الاستاذ الذي لا يعنى بتنمية الذوق الادبي في تلاميذه لا يكون أستاذاً صالحاً ، تنمية الذوق هذا هو هدف الاستاذ وعلى حسب ذوقنا الادبي يكون شعورنا بالجمال . واحساسنا للقبح ، على حسب هذا الذوق يكون ادراكنا لمحاسن العالم وقبائحه ، فاذا فسد ذوقنا الادبي ضعف شعورنا بجمال العالم وبهجة الحياة ، اذا فسد هذا الذوق انقلبت أضواء الحياة ظلمات بعضها فوق بعض ، وما انحط الادب الا لفساد الذوق ، أصبحنا في عصر لا نستطيع التمييز فيه ، تعرض علينا الآثار الصالحة فلا نهتدي الى التلذذ بصلاحها ، وتعرض علينا الآثار الفاسدة فلا ننقبض عن مواضع فسادها ، ولو سلم ذوقنا لتيقظ فينا الشعور بفاعة الآثار وشناعتها ، فما كل اثر من هذه الآثار الادبية فاسد قبيح ، ولا كل واحد منها رائع جيد ، فالذوق وحده هو الذي يهدينا سواء السبيل في التمييز والاستاذ هو الذي يقوي فينا هذا الذوق . تثقيف الذوق الادبي هذا كل شيء في الادب .

وقبل ان أبين كيف يستطيع الاستاذ ان يروّض تلاميذه على ذوق لذة الافكار أحب ان انظر في الامر الثاني الذي أشار اليه (لانسون) اي أحب ان أبين ان أستاذ الادب الذي لا يكون من هواة الادب لا يستطيع ان يثقف ذوق تلاميذه ، فالادب شيء وعلم اللغة شيء آخر وقد يجوز ان يضرب الاستاذ في اللغة بالسهم الفائز وان يأخذ منها الحظ الاوفر ولا يكون في هذا كله اديباً ، اي لا يعرف اماكن الجمال ومواطن القبح في آثار اللغة الخالدة فاذا خرج الاستاذ عن ان يكون أديباً ، اذا لم يستطع ان يذوق لذة الجمال أعقم التدريس وأفسد الاذواق ومتى فسد الذوق فسد كل شيء في الادب ، أستاذك ذوقك : هذه كلمة (فولتير Voltaire) .

قلت : تثقيف الذوق الادبي هذا كل شيء في الادب ، فكيف يثقف هذا الذوق

ويقوم ، كيف يدرب على التمييز في الآثار الادبية ، هنا العقبة الكؤود ، وهنا يظهر ضعفنا وينكشف أمرنا . سئلت مرة عن رأيي في أساليب طلاب (البكالوريا) في الانشاء ، فقلت بعد التمحيص والتدقيق في جملة ماقلت : ان الطلاب لم يتعمقوا التعمق كله في الموضوعات التي طرحت عليهم ، فقد كانت أفكارهم سطحية على انهم كانوا يستطيعون بفضل ثقافتهم العامة التعمق في الموضوعات والذنب في ذلك يرجع الى أساليب التدريس فلم ينظر الطلاب في كتاباتهم نظرات عامة اي انهم لم يبحثوا عن كاتب اوشاعر على وجه عام او عن نتائج عصر من العصور على صورة عامة ، او عن التطور الادبي في خلال العصور ، ان الاساتيذ لايدربونهم على التفكير ولايعودونهم ان تكون لهم أفكار عامة في موضوعات حديثة . وجملة القول ان تدريس الادب ينقصه الشيء الكثير فهو لايستند الى دراسة المصادر الادبية نفسها اي الى دراسة كلام المؤلف اوشعر الشاعر او خطبة الخطيب فان تفسير هذه المصادر هو المعتمد عليه في تدريس الادب والظاهر ان هذا النقص ذاته كان في مدارس فرنسة حتى جاء في بلاغات وزارة معارفها سنة ١٩٠٢ ان تدريس الادب يجب ان يكون أساسه درس المصادر الادبية نفسها .

المعول عليه من كلامنا هذا درس المصادر الادبية لان هذا الدرس هو الذي يقوم الذوق فكيف تدرس المصادر الادبية ، كيف يشرح كلام الكتاب وشعر الشعراء هذا الذي نحوم عليه ونلوب فلا نكاد نصل اليه ، فقد كنا ولا نزال اذا شرحنا شعراً نتوخى تفسير الغريب من هذا الشعر واعراب المشكل من تراكيبه والتنبيه على مذاهب الاستعارات والكنايات وسائر فنون المجاز هذا شيء وليس بكل شيء ، ان التفسير اللغوي قد يولد فينا ميلاً الى معرفة مفردات اللغة ولكنه لا يولد فينا ذوقاً أدبياً اي لا يقوي فينا الشعور بالجمال . واللغة كما قلت شيء والادب شيء آخر ، وكثير من علماء اللغة أنفسهم لا ذوق لهم في الادب .

ان هذه المصادر الادبية التي نتفرغ لدراستها تشتمل على امور غير امور اللغة وآلاتها ان هذه المصادر انما هي آثار ناطقة يظهر على كل واحد منها روح صاحبه وفكره وعاطفته فتدلكم على آثار العصر والبيئة فيها او تنبهكم على آثارها في هذا العصر وفي هذه البيئة وتكشف لكم عن اهواء صاحبها وانفعالاته . فاذا اردتم ان تعرفوا شيئاً من روح الشاعر

ومن فكره ومن عاطفته فان التفسير اللغوي لا يضمن لكم الوصول الى هذه المعرفة ولكنه يعينكم عليها فاستنطقوا المصادر الادبية واسألوا كلام المؤلف وشعر الشاعر وخطبة الخطيب فان من وراء هذا كله اشخاصاً ينطقون و يشعرون فاذا خالطتم هذه المصادر ومازجتموها احطتم بظواهر اصحابها وبواطنهم واتصلتم باسرارهم والغازهم فعرفتم خصائصهم وطبائعهم واهتديتم الى اخلاقهم واوضاعهم فنشأت في انفسكم من هذا كله لذة منقطعة النظير ومن هذا يتبين لكم انه لابد لكم من الاحاطة بعلم النفس حتى تستطيعوا ان تمضوا القول في روح الشاعر وفي عواطفه ٠

قلت : المصادر الادبية تدلكم على آثار العصر والبيئة فيها او تنبهكم على آثارها في هذا العصر وفي هذه البيئة وهذا معناه انه لا بد لنا من معرفة العصر الذي نحاول درس شاعر من شعرائه فلابدلنا من معرفة مصطلحات هذا العصر والافكار التي ولدها هذا الشاعر في عصره والعواطف التي ايقظها فاذا كنا مثلاً ندرس المتنبي ووقع نظرنا على اسلوب غريب في شعره او على لفظ غريب فلا يصح ان نجزم ونقطع قبل ان يتحقق عندنا ان هذا الاسلوب غريب قياساً الى عصر المتنبي اذ انه قد يكون غريباً في عصرنا ومأنوساً في عصر ابي الطيب ٠

يستنبط مما تقدم اننا ينبغي لنا ان نستعين بالمصادر الادبية نفسها على فهم روح صاحبها وافكاره وعواطفه فاذا استطعنا ان نفهم شيئاً من ذلك نشأ فينا ذوق ادبي ٠ ومتى نشأ هذا الذوق وكان سليماً خالصاً شعرنا بمحاسن الآثار الادبية وبهذا الشعور تزداد لذتنا بمحاسن العالم نفسه على اننا لانستطيع ان ندرك حقائق المصادر الادبية الا اذا كنا منفردين بامر البحث والتنقيب فلا ينبغي ان يكون لغيرنا تأثير فينا ، لا ينبغي لنا ان نكرر كلام غيرنا على اثر من آثار الادب فاذا فعلنا شيئاً من ذلك كانت دراستنا الادبية جامدة لا روح فيها ٠ —

قال الاستاذ « لانسون » :

« اذا حاولت ان اتصور خصائص المؤلفات وطبائع اصحابها امتنعت عن تخليص آراء من اولعت بهم من الاساتذة في هذه المؤلفات اشباه « تين » و « سانتبوف » و « غاستون باري » و « برونتير » فالاولى لي وانا اخوض في موضوع ليس فيه حقيقة مبنية على اصول مستندة الى عقل ان ألخص ما انشأته في قراءة هذه المؤلفات من الانفعالات وما اخطرته

بباقي من الآراء وما اهتديت اليه من صيغ فكر المؤلف وعاطفته ، وعلى هذه الصورة وحدها تكون الدراسة صادقة ، فيها روح اذ انه لا يستطيع احد ان يستميل غيره الى الامور التي يخوض فيها الا اذا استعان على ذلك بالذوق الذي ذاقه هو نفسه في هذه الامور » .

هذا ما قاله لانسون ومن قوله هذا يتبين لنا اننا اذا اردنا الكلام على المتنبي مثلاً لزمنا ان ندرس شعر المتنبي نفسه دون ان نردد ما قاله فيه بعض الاساتذة كالثعالبي والجرجاني وغيرهما ، اذا اردنا الكلام على حس المتنبي لزمنا ان ندل على مواطن هذا الحس وعلى طبائعه من دون ان نستعير كلام غيرنا والخلاصة اذا حاولنا دراسة المتنبي وجب علينا ان نقرأ شعره وندون الآثار التي تركها فينا هذا الشعر وننقل هذه الآثار الى غيرنا حتى يكون في كلامنا شيء من الروح والحياة وعلى هذا ينمو ذوقنا في الادب ومتى نما هذا الذوق نما معه الشعور بالجمال .

اني لا ارى اضل سبيلاً من الذين لا يريدون ان ينفردوا بآرائهم في الادب . وعلى الخصوص بعد ان عرفنا ان الادب ليس فيه حقائق مبنية على اصول مستندة الى عقل اي ليس فيه شيء من حقائق العلم الثابتة وانما الادب يتبع الذوق والعاطفة فتتغير آراء الناس فيه بتغير اذواقهم وعواطفهم انظروا مثلاً الى «فيكتور هوغو» فقد قال فيه « فاكه Faguet » « هوغو من الخالدين لان جمال الاسلوب هو الذي يخلد » وقال فيه اناتول فرانس : « ان مجد الشاعر الذي احتفل امس آخر احتفال بوفاته يأتي عليه اليوم دهر صعب حرج لقد ذهب اعجاب المعجبين به الذين كانوا واعياً بعد ان جهدوا في ذلك الاعجاب خمس عشرة سنة ، وتبددت طائفة من الاوهام فقد كانوا يظنون ان شاعراً كبيراً فكر اكثر من ذلك » . انظروا الى تناقض هذين الرأيين في شاعر مثل « هوغو Hugo » ومنه يتبين لكم قلق الادب واضطرابه فاذا كان الامر كما وصفنا فما أجدر الذين يريدون ان يذوقوا لذة الادب بالانفراد بآرائهم دون ان يكون لغيرهم سلطان عليهم .

هذا ما حاولت تقريره في هذا المجلس وما أريد ان أبسط القول اكثر من ذلك ، ولئن كانت خلاصة حديثنا الاول : الادب روح الوطن وعبقريته ، فخلاصة هذا الحديث تثقيف الذوق هو الذي يضيء لنا الظلمات حتى ندرك روح هذا الوطن وعبقريته .

في ١٦ تشرين الثاني سنة ١٩٢٩

تمازج الثقافات

ما ارى حاجة الى ان اعيد في هذا المقام ما قلته في دراسة المصادر الادبية ، فقد عرفتم ولا ريب في ذلك كيف يجب علينا ان نقرأ كلام الكاتب اوشعر الشاعر اوخطبة الخطيب ، عرفتم كيف يجب علينا ان نحيط بروح المؤلف و بافكاره وبعواطفه ، وننظر في اتصال هذه الامور النفسية بعضها ببعض وفي تفاصيلها ومظاهرها ، عرفتم كيف ينبغي لنا ان نبحث عن بيان المؤلف وفنون افصاحه ، وعن خصائص لغته وأسلوبه ، وفي الجملة فقد عرفتم كيف ينبغي لنا ان ندرس المصادر الادبية واذاقلت : دراسة المصادر الادبية ، اردت بذلك التعمق في التنقيب عن فكر المؤلف وعواطفه ، والتمكن من معرفة مراميه والوصول الى تلك الذكريات التى كانت تخطر بباله في ساعات تأليفه وكتابته ، فاذا كنا نفسر كلاماً فكأننا نحاول ان نقوم مقام صاحب هذا الكلام ونبعث قبالة اعيننا حالة عقله من مرقدها ، وننعش فكره وانفعالاته بعد ان ذهب اثره ، وانطوى ظله ، ولم تبق منه الا صفحات لا نرى فيها في فاتحة الامر غير صور بعيدة عنا ، وتعابير جامدة لا روح فيها ، فاذا عالجناها انتفضت من مدافنها فأصبحت صوراً ناطقة تشعر وتفكر .

كان يجب عليّ بعد ان فرغت من هذا التمهيد ان اشرع واياكم في قراءة شعرائنا الثلاثة : ابي الطيب وابي عبادة وابي تمام ، وانا لا اشك في ان لهذه الاسماء العربية صدى في آذانكم لا نجده لغيرها من الاسماء غير اني اذا كنت قد استعنت بطائفة من آراء الافرنجة على الخوض في موضوع للعرب فيه المقام الارفع والمحل الاشمخ ، فما اردت بذلك ان اكفر نعمة ادب ذهبت في الشغف به كل مذهب ، مااردت ان اكفر نعمة لغة امتزجت بالنفس محبتها ، والعود غض والغصن رطيب ، الا انه اذا كان يتيسر لي الاستشهاد ببعض آراء شيوخ ادبنا في قديم الدهر كالجاحظ واشباهه ، ومن هم اشباه الجاحظ ، فما كان يتيسر لي الاهتداء الى كل الآراء ، والادب قد لبس في هذا العصر برداً قشيباً فحدثت فيه حوادث وعلقت فيه عوائق ، ونهجت مناهج وسلكت مسالك ، فلا مندوحة لنا عن الاقتباس من بعض الافرنجة ولا غضاضة في ذلك فقد اخذوا عنا فأخذنا عنهم وتلك الايام نداولها

بين الناس ومازالت الامم في قديم الدهر وفي حديثه يقتبس بعضها من بعض وقديماً تمازجت الثقافات فأدى تمازجها الى العواقب المحمودة في عبقرية الفكر ·

لنلتفت قليلاً الى القرون الخالية فلننظر الى الرومان كيف اقتبسوا ادبهم من اليونانيين فقرأوا كتبهم ونقيلوا طرائقهم ولننظر الى الادب الفرنسي في القرون الوسطى كيف انبلج نوره من أفق اللاتينية وهذا « سبنسر » اخذ عن الايطالية في ايام تجديد ادبها ، وهذا الشاعر الانكليزي « تومسون » قد اثر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في مؤلفي فرنسة من المعصرين المذكورين وقد كان « فولتير » يعبد الكاتب «اديسون» وكان « روسو » و « ديدرو » يعبدان « ريشاردون » واي تأثير اعظم من تأثير شاعري الانكليز « شكسبير » و « بايرون » في الادب الفرنسي ، وقد كان شعراء الادب الوجداني في فرنسة متصلين الاتصال كله « بوالترسكوت » ومن «ميشله» الى « رنان » قد استنزل كتاب فرنسة الذين نظروا في مصاير النوع البشري وحيهم من المؤرخ الالماني « هردر » وشاعر الالمان «غوتي» استنزل وحيه من ادب المتقدمين وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر اقتبس الاسبانيون ادبهم من شعراء فرنسة مثل « موليير » ولم يقصر الروس في الاخذ عن الادب الغربي في القرن التاسع عشر ولم يحجم البولونيون عن اقتباس أدب فرنسة وايطالية والمانية وانكلترة .

مالنا وهذه الاعجميات فلننتقل الى ناحية اقرب · هذا ادب العرب نفسه ، أفلم يدخله شيء من حكمة الهند ، وفلسفة اليونانيين ، وادب الفرس ، وهذه مصر في عصرنا أفلم يكن للثقافتين الفرنسية والانكليزية اثر في كتابات ادبائها ، أفكان يستطيع اساتيذ ادبها ان يسلكوا هذا المسلك في ادبهم لولا معرفتهم بعض اللغات الاجنبيات ·

معاذ الله ان ارمي في قولي هذا الى الخروج على عبقرية ادبنا فان الامة التي لا تتصل بماضيها لا تثق بحاضرها وآتيها ، وان لنا من هذا الماضي الشيء الذي نفخر به على وجه الدهر ، ان لنا من هذا الماضي محاسن لا تبلى سجيس الليالي ، ولكن تجديد الادب في هذا العصر امر لا مندوحة عنه ، فان الافراط في المحافظة على هذا الادب لا يقل ضرره عن الافراط في التجديد ، ولو شئتم لتلوت عليكم صفحة كتبها ابوالحسين احمد ابن فارس بن زكريا المقيم من الف سنة بوجه التقريب ، ما اظن احداً من ادباء هذا العصر

يعقد فصلاً ابلغ من هذا الفصل في التجديد قال ابو الحسين :

« ومن ذا حظر على المتأخر مضادة المتقدم ، ولمه تأخذ بقول من قال : ما ترك الاول للآخر شيئاً ، وندع قول الآخر : كم ترك الاول للآخر ، وهل الدنيا الا ازمان ، ولكل زمان منها رجال ، وهل العلوم بعد الاصول المحفوظة الا خطرات الاوهام ونتائج العقول ، ومن قصر الآداب على زمان معلوم ، ووقفها على وقت محدود ، ولمه لا ينظر الآخر مثل ما نظر الاول حتى يؤلف مثل تأليفه ويجمع مثل جمعه و يرى في كل ذلك مثل رأيه ، وما تقول لفقهاء زماننا اذا نزلت بهم من نوادر الاحكام نازلة لم تخطر على بال من كان قبلهم ، او علمت ان لكل قلب خاطراً ولكل خاطر نتيجة ، ولمه حجرت واسعاً وحظرت مباحاً وحرمت حلالاً وسددت طريقاً مسلوكاً ، ولو اقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير ولذهب ادب غزير ولضلت افهام ثاقبة ولكلت ألسنة لسنة ولما وشى احد خطابه ، ولا سلك شعباً من شعاب البلاغة ولمجت الاسماع كل مردد مكرر وللفظت القلوب كل مرجع ممضغ » .

ما اثقب نظر ابي الحسين رحمه الله ! ما اهدى فكره ! ما اصفى ذهنه ! لو اقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير ولذهب ادب غزير ، ان عقل البشر ينبسط افقه من عصر الى عصر ، ويتسع مجاله من دهر الى دهر فيولد في انبساط هذا الافق واتساع هذا المجال الفاظاً ومعاني لم تك من قبل ، و ينشئ الادب لهذه المعاني اساليب طريفة ويفرغها في قوالب حديثة ، وعلى هذا يتنقل الادب من طور الى طور ويتدرج من حال الى حال على تعاقب الاحقاب ، ولو ثبت هذا الادب على اساليب محدودة لاتى عليه حين من الدهر لم يك فيه شيئاً ، لو تملص هذا الادب من عوامل الحضارات والثقافات لما وسع شيئاً اننا نجد مذاهب تولد ، ومذاهب تموت والفاظاً تدفن والفاظاً تبعث واساليب تعيش واساليب تنقرض ، ما اعظم انقلاب الافكار ! قال الاستاذ « شارل ريشة » احد اعضاء معهد باريز :

« يسير العلم في سبيله سيراً تحار ثواقب الانظار في سرعته ، على ان العلم لا يزال في عنفوان امره ، وريعان عمره ، فالعالم « ارخميدس » على نبوغ فضله و براعته ، كان يجهل ما يعلمه المعلمون اليوم في المدارس الابتدائية ، واجهل تلميذ من تلاميذ المدارس التجهيزية يعرف من العلوم اموراً يجهلها العالم « غاليله » نفسه ، ما بين العالم « فرنكلان » وبين

العالم « انشتين » مائة وخمسون سنة فتصور مسير العلم في مائة وخمسين سنة ، ما اعظم انقلاب الافكار ! لم يكن في القديم علم الاحافير ولا علم الجراثيم ولا علم التصوير ولا الطيران ولا خطوط الحديد ولا حل الطيف الشمسي ، فلا يتجاوز عمر علوم البشر قرناً ونصف قرن ، وما هو قرن ونصف قرن ؟ المشي غير وئيد ، اننا نسير في معرفة الاشياء على سلسلة هندسية متصاعدة وفي يوم من الايام سيكون للرجل بفضل ما يقتبسه من العلوم سلطان عظيم على المادة مهما اختلفت أشكالها » .

هذا ما قاله (شارل ريشه) في كتابه العالم . ولو قلتم لي وما هي الاواصر بين العلم والادب لأجبتكم بان العلم اذا امتد سلطانه فانه لا يخلو من التأثير في الفكر وبالادب كما أشرت الى ذلك في حديثي الاول تستفيض مذاهب الفلسفة والعلم في طبقات الناس فتعمل عملها في أوضاع الجماعات ، فالادب ظهير العلم ومعينه ، ولو نظرتم في تخالط الامم في هذا العصر وتقارب جماعاتها ، وشيوع لغاتها ، وآثار عقولها ، لرأيتم ان الثقافات لا مندحة لها عن التمازج والتواصل ، فالامم يأخذ بعضها عن بعض ويهتدي بعضها ببعض ، لا شك في ان لكل أمة ثقافة أدبية خاصة بها تصلح لها وقد لا تصلح لغيرها من الامم غير ان تمازج الثقافات اذا روعي فيه روح الامة وروح لغتها أفضى الى الخواتيم الحسنة في نتائج العقول وثمرات الالباب لنضرب مثلاً لذلك .

قلت : لكل أمة ثقافة أدبية خاصة بها ، فاذا قابلنا بين الشعوب السامية وبين الشعوب الآرية وجدنا ان الفكر في هذه الشعوب مختلف بعض الاختلاف فالفكر مثلاً في العبري لا يستطيع ان يتجرد من الصورة المادية التي تسمره وتغطيه ، ولذلك فانك تجد لغة التوراة لغة شعرية ساطعة الا انها تعجز عن بيان الفكرة المجردة ، فالذهن في الامم السامية عنيد فانه يحتفظ بالصورة ويحرص على طابع الانفعال المادي ، اما الذهن في الشعوب الآرية فانه أمرن وألين فهو ينسلخ من المادة ويرتفع الى تصور الفكرة المجردة وإدراكها ، ولعلك تجد في هذا التباين السبب في شيوع الفلسفة في الجنس الآري وانقطاعها في الشعوب السامية ، لان التجريد من خصائص الفلسفة ، والشعوب السامية أصحاب خيال فهم بعيدون عن التجريد[1] .

---

(١) رأي الاستاذ « دارمستتر » صاحب كتاب : حياة الالفاظ .

فلما تقارب العرب وبعض الشعوب الآرية كالفرس واليونانيين انتقلت آثار هؤلاء الى العرب والفلسفة من جملة هذه الآثار ، فهي نتيجة من نتائج تمازج الثقافات وما أظن ان الفلسفة خلت من رسوم حسنة في الفكر العربي .

ما أردت التبسط في هذا الموضوع ولا كانت غايتي استنهاض هممكم للتقليد فاني من المتشددين في الحرص على أوضاع أدبنا والاحتفاظ بمذاهبه ، الا ان هذا التشدد لا يمنعنا عن اقتباس ما يزيد في رونق لغتنا وأدبنا فاني أخشى اذا جمد هذا الادب ان يضيق عن استيعاب ما استحدثته حضارة العصر فاذا أخذنا في بعض الاحايين عن ثقافات الامم ما يحسن أخذه فلا حرج علينا في ذلك ، وقديماً استعان أدباؤنا بآثار من جاورهم وخالطهم فما نقصت مقاديرهم ولا خفت موازينهم ، فطلعوا على قومهم بادب مصقول الحواشي مهذب الاطراف ، على اني لا أقول بالمبالغة في الاخذ والاقتباس فان ميراثنا الادبي روحاً يجب علينا ان نحافظ عليه ، وان للعصر روحاً مالنا منه فلت ، فالتأليف بين الروحين صقال الادب ونموه .

دمشق : في ٢٣ تشرين الثاني سنة ١٩٢٩

فصح وشوارد

الارض مثعلة : كثيرة الثعالب . وسَرِفة كثيرة السُّرْفة وهي دويبة سوداء الرأس وسائرها احمر تتخذ لنفسها بيتاً مربعاً من دقاق العيدان على مثال الناووس تضم بعضها الى بعض بلعابها وتدخله فتموت فيه ومنه المثل (أصنع من سُرفة) .

ومشبولة كثيرة الاشبال . ومشاهة ذات شاء او كثيرة الشياه . ومفعاة كثيرة الافاعي . ومفأرة وفئِرة كثيرة الفئران . ومغدرة كثيرةالغدور اي الوعول الغادرة .
ومضبّة وضببة كثيرة الضب . ومضغبة كثيرةالضغابيس والضُغبوس ولدالثعاب .
ومبعضة كثيرة البعوض . ومبقّة كثيرة البقّ . ومَحياة ومحواة كثيرة الحيات .
ومَكلبة كثيرة الكلاب . وموزّة كثيرة الوزّ . وموحوشة ذات وحش او كثيرة الوحش . ومأوزة كثيرة الأوز . ومجرودة كثيرة الجراد . ومثورة كثيرة الثيران .
ومَجرذة كثيرة الجرذ .

ويقال أظبت الارض كثرت ظباؤها . وأسبع الطريق كثر فيه السباع .
وأضبّ المكان كثرت ضبابه . وأبعض القوم صار في أرضهم البعوض .
وارض محربشة كثيرة الحرباء . ومسروءة ذات سروء وهي البيوض من الجراد والسمك والضِباب . ومظبأة كثيرة الظباء .

* * *

وانتهج الرجل طلب النهج . وأوعر السالك وقع في وعر من الارض . وأجدّ لزم الجدَد وهي الارض الغليظة المستوية ومنه المثل من سلك الجَدَد أمن العثار .
وحقّ الطريق ركب حاقّه اي وسطه . وسمَّت : لزم السمت وهو الطريق والمحجة تقول خذ في هذا السمت .

وأسبل الطريق : كثرت سابلته . وطرّق الموضع : جعله طريقاً يقال لا تطرّقوا المساجد — وللابل : جعل لها طريقاً . واستطرق الشيء : اتخذه طريقاً . وأجدّ الطريق : صار جَدَداً . واستنهج : صار نهجاً .

* * *

وعشّر الغراب : نعق عشرة أصوات في طلق واحد . ونَغَق نغيقاً ونُغاقاً : صاح غيق غيق . وقَطَت القطا تقطو قطواً : صوّتت بقولها قطا قطا . وقطقطت صوتت وحدها . وعندل العندليب : صوّت ومثله وَطّ الوطواط وبطبط البط وزرزر الزرزور ونخنت الفاختة . وقد مأمأت الشاة والظبية مأمأة : واصلت صوتها فقالت مئ مئ . ولقلق اللقلاق : صوّت . وكذا قعقع القُعْقُعُ وتضوّع الضُّوَع .

***

ويقال داهى القوم مداهاةً ودِهاءً اي أصابهم بداهية . وصَلَّتهم الصالّة : أصابتهم والصالّة الداهية ومثله ذبلتهم ذبول . وفقرته الداهية فقراً : نزلت به فكسرت فقار ظهره . وقد تَرِه الرجل ترهاً اي وقع في الترّهات . وأصبر : وقع في ام صبُّور اي الداهيـة . ودبلته الدبول اي دهته الدواهي . وأفلق الرجل : جاء بِعُلَق فُلَق اي بالداهية .

وأفتق الرجل : ألحّت عليه الفتوق اي الآفات من جوع وفقر ودين . ونكبه الدهر اي أصابه بنكبة . ووتر فلاناً أصابه بوتر . وأفظعه أوقعه في امر فظيع شديد . والأى الرجل وقع في اللأواء وهي الشدة والمحنة . وأزل الناس : أصابهم الأزل اي ضيق العيش وقحطوا . وأسنتوا أجدبوا واصله من السنة بمعنى القحط والجدب .

وشتا القوم وأشتوا : أجدبوا في الشتاء . وثغبوا ثغباً أصابهم الثغب وهو القحط . وأمحل الله الارض : جعلها محلة . وأقحطها أصابها بالقحط . وجرد القحط الارض وجرّدها : جعلها جرداء . ودُبيت الارض : أكل الدبى نباتها فهي مدبيّة ومدبُوّة . وجرِدت وجُردت : أكل الجراد نباتها — وجُردت الزروع : اصابها الجراد . وبَشَر الجراد : اكل ما على بشرة الارض اي وجهها .

***

ويقال اكثأت الارض : كثرت كثأتها وهي الحنزاب اوالكرّاث او بزرالجرجير . وأقثأت كثر بها القثاء — والقوم كثر القثاء عندهم . واجملوا كثرت جمالهم . وأشحم الرجل اذا كثر عنده الشحم مثل ألحم اذا كثر عنده اللحم . وأبلت الإبل : كثرت . وأبّل الرجل : كثرت إبله ومثله آبل ابالاً . وتعقّر : كثر عُقاره وهو

خيار المال والكلأ . وأضبَّ البلد : كثرت ضبابه . وأثلَّ الرجل : كثرت عنده الثَّلَّة وهي الضأن الكثيرة وفي القاموس جماعة الغنم الكثيرة او من الضأن خاصة ولا يقال للمعزى الكثيرة ثلَّة ولكن حَيْلة ، فاذا اجتمعت الضأن والمعزى فكثرتا قيل لهما ثلة ومنه بنو فلان مُثِلّون اي اصحاب غنم .

ورسَّل القوم : كثر رسلهم وهو اللبن ما كان . وأزبدوا : كثر زبدهم . وأزاتوا كثر عندهم الزيت . وأرحلوا : كثرت رواحلهم وهي الابل القوية على السفر والاحمال .

ونضَّض الرجل ونضنض : كثر ناضُّه اي دراهمه ودنانيره .

وأغزر القوم : غزرت إبلهم وشاؤهم وكثرت ألبانها — وصاروا في غزر المطر وهم قوم مُغزر لهم اي غزرت إبلهم وألبانهم .

وقد أكثر الرجل اي كثر ماله .

(النبك) : سالم خليل رزق



آراء وافكار

قوة الحافظة وكثرة المحفوظات

اذكر في هذه العجالة فريقاً من العلماء الاعلام الذين نؤثر عنهم قوة الحافظة وكثرة المحفوظات مثبتاً لهم هاتين الصفتين دون باقي صفاتهم واخبارهم التي هي من وظائف المؤرخين ونقلة الاخبار قاصداً بذلك الفات انظار ابناء المدارس والمكاتب الى ما في الحفظ من الفوائد والمقاصد فتثور هممهم الى اقتفاء آثار اولئك الرجال و يسيرون على مناهجهم في حفظ ما يمليه عليهم اساتذتهم ومعلموهم خصوصاً منهم من رزقه الله حافظة قوية فعرف قدرها وما اضاعها بالانصراف عنها الى ما يضعفها من الانهاك بالاكل والشرب وباقي الملذات البدنية ولم يقارف شيئاً من مورثات النسيان على ما سنذكره قريباً ٠

ان ابناء المدارس الذين وهبهم الله قوة في حافظتهم هم اولى الناس بصرفها الى الحفظ والاكثار من المحفوظات لأن العائق الذي يعوق غيرهم عن استثمار هذه القوة « وهو الاشتغال بتحصيل المعاش » قد كفاهم اولياؤهم امره فلم يبق عليهم سوى القناعة باليسير والانصباب على حفظ ما يتلقونه من اساتذتهم وبذلك يحرزون شرف النبوغ في علومهم وينالون مزية التفوق على غيرهم ممن حرم هذه القوة اورزقها ولكنه لم يتوفق لاستخدامها ٠

وانني قبل الشروع بذكر الحفظة وبيان محفوظاتهم آتي على ذكر بعض فوائد لها علاقة بهذا الموضوع فأقول :

العلم ما يحفظ لا ما يكتب — ٠

قالوا : ليس بعلم ما حوى القمطر ما العلم الا ما وعاه الصدر

وقيل العلم في الصدور لا في السطور ، وقيل العلم ما استحضرته وانت في جانب جرن الحمام : يريد قائل هذا ان العالم الحقيقي هو الذي اذا تحدثته بمسألة علمية بدهك بالجواب الصواب غير قائل لك حتى اراجع الدفتر او الكتاب ٠

معنى الحفظ — ٠ يقال حفظ القرآن : استظهره ووعاه على ظهر قلبه ومنه قول المحدثين عرض محفوظاته على فلان ، و يقال حفيظ وحافظ من قوم حفاظ وهم الذين

رزقوا حفظ ماسمعوه وقلما ينسون شيئاً يعونه . و يقال حافظ من قوم حفظة ككتاب وكتبة والحفظ نقيض النسيان وقلة الغفلة . و يقال رجل حُفظة كهمزة اي كثير الحفظ . ومن المجاز قرأه عن ظهر القلب اي قرأه حفظاً بلا كتاب . و يقال حمل فلان القرآن على ظهر لسانه كما يقال حفظه على ظهر قلبه . واستظهر القرآن اي حفظه وقرأه ظاهراً . ومن المجاز ايضاً ظهرت على القرآن واظهرته ا قرأته على ظهر لساني .

عناية السلف بحفظ الحديث واللغة —. كان السلف يتبارون بحفظ الحديث واللغة و يرون ان النبوغ فيهما غير متاح الا لمن يحفظهما باسانيدهما . وكان حفاظهما يملونهما في مجالس لهم يحضرها اولو العناية بهما و يكتبونهما عنهم . وقد املى حفاظ اللغة والادب من المتقدمين الكثير فاملى كل من ثعلب وابن دريد مجالس كثيرة واملى ابو محمد القاسم ابن الانباري وولده ابو بكر ما لا يحصى . واملى ابو علي القالي خمس مجلدات واملى الشريف المرتضى كتاب الغرر والدرر املاء في مجالس على فنون من المعاني والادب تكلم فيها على النحو واللغة وغير ذلك . وآخر من املى في اللغة ابو القاسم الزجاجي سنة ٣٣٩ : اما املاء الحديث فقد استمر الى سنة ٨٧٢ ثم انقطع .

على ان العلماء الذين اكثروا من المؤلفات في مختلف العلوم والفنون كصاحب الاغاني والغزالي والزمخشري وابن تيمية والجلال السيوطي — هم ليسوا دون اصحاب الامالي في قوة الحافظة و كثرة المحفوظات بل هم باعتبار كثرة مؤلفاتهم جديرون ان تعد مراتبهم في قوة الحافظة و كثرة المحفوظات فوق مراتب اصحاب الامالي فان مؤلفات كل واحد منهم على انفراده قد تضاهي بحجمها وعظمها جميع كتب اصحاب الامالي وقد نقلها الى القرطاس من خزانة حافظته صفواً عفواً كاصحاب الامالي لا من الكتب المحفوظة في خزائنه اذ العقل يحيل ان تتسع ايام حياته لتأليف تلك الكتب الكثيرة اذا لم يكن مستظهراً لها بان كانت مسألة منها لم يفرغها في قالب التأليف الا بعد ان يبحث عنها في مظانها من الكتب المحفوظة في خزائنه .

فانا نرى في المؤلفات المنسوبة الى الجلال السيوطي مثلاً — ان مجرد نسخها و كتبها مما تضيق عنهما ايام حياته فكيف يمكننا والحالة هذه ان نصدق إن كانت غير محفوظة له أن تتسع لتأليفها ايام حياته اذ كان كل كتاب منها لم يتم له تأليفه الا بعد ان راجع

عن مسائله الكتب المختصة كما هو الحال والشأن مع احدنا اذا اراد ان يكتب في موضوع ما .

اهتمام ائمة اللغة بحفظ غريبها — . كان المشتغل باللغة لا يرى نفسه اهلاً لان يدعى لغوياً حتى يحفظ منها الغريب ، روى صاحب كتاب نفح الطيب عن محمد بن احمد الانصاري المعروف بالابيض انه سئل عن لغة فعجز عنهـا بحضر من تخجل منه فأقسم ان يقيد رجليه بقيد حديد ولا ينزعه حتى يحفظ كتـاب (الغريب المصنف) فاتفق ان دخلت عليه أمه وهو في تلك الحالة فارتاعت وقالت له هل جننت فقال :

روعت عجوزي أن رأتني لابساً حلق الحديد ومثل ذاك يروع
قالت جننت فقلت بل هي همة هي عنصر العليـاء والينبوع
سن الفرزدق سنة فتبعتهـا اني لمـا سن الكرام تبوع

قلت (الغريب المصنف) كتاب الفه ابو عبيد القاسم بن سلام وله كتاب غريب الحديث وكتاب غريب القرآن . واما قوله سن الفرزدق الخ فقد اشار بذلك الى ما فعله الفرزدق لما اراد حفظ القرآن فانه قيد رجليه بقيد من حديد ولم ينزعه حتى حفظ القرآن .

ما يجب على الحافظ مراعاته — . يجب على الحافظ ان يستوعب في حافظته ما يريد حفظه بلفظه ولا يجوز له ان يستوعبه بمعناه دون لفظه الا اذا كان عارفاً بمواقع الكلام قادراً على ان يأتي بلفظ مرادف للفظ الاصلي مساوٍ له في المعنى جلاءً وخفاءً من غير زيادة في المعنى ولا نقص فان المقصود هو المعنى دون اللفظ ، وهذا في غير القرآن واللغة فان حافظهما لا يجوز له ان يحفظ فيهما المعنى دون اللفظ لان الغرض فيهما هو اللفظ بعينه .

ومما يجب على الحافظ ايضاً ان يفهم معنى ما يحفظ والا كان كالببغاء تنطق بما تلقن من الكلمات ولا تفهم لها معنى او كان كالرجل الذي يقـال عنه أنه كان يحفظ كتاب الروض للمقري ولا يفهم لمسائله معنى فكان الطلبة يقترحون عليه قراءة بعض فصول منه فيقرؤها و يحصلون منهـا على بغيتهم وهو لا يفقه معنى ما قرأه عليهم فصاروا يسمونه حمار الروض اخذاً من آية (فمثله كمثل الحمار يحمل اسفارا) والى هذا اشار بعض الصوفيه بقوله :

حمار العنبِ ايش معناه حاملٌ ثقيل الارطال
غير متلذذٍ بحلواه وهو حامل الحمل باطل

وقال مروان بن ابي حفصة يذم قوماً استكثروا من رواية الاشعار من غير فهم ما فيها من المعاني واللطائف :

زوامل للاشعار لا علم عندهم بجيدها الا كعلم الاباعر
لعمرك مايدري البعير اذا غدا باوساقه او راح ما في الغرائر

ومما يجب على الحافظ ايضاً ان يكرر ما يحفظه كي لا ينساه فان ترك التكرير من اكبر موجبات النسيان فقد قيل آفة العلم النسيان واعظم بواعث النسيان الترك . قيل للاصمعي كيف حفظت ونسي أصاحبك قال درست وتركوا .

مورثات النسيان . — يروى عن سيدنا علي بن ابي طالب انه قال : عشرة تورث النسيان كثرة الهم والحجامة في النقرة والبول في الماء الراكد واكل التفاح الحامض واكل الكسفرة واكل سؤر الفأر وقراءة الواح القبور والنظر الى المصلوب والمشي بين القطارين والقاء القملة حية اه . كان السلف يعتقدون صحة هذه الاسباب ويتجافون عن اتيانها وان كانوا يعجزون عن تعليل تأثير بعضها اذ لا مجال للعقل في ادراك ما هو الارتباط الكائن بين القوة الحافظة وبين البول في الماء الراكد واكل سؤر الفأر والقاء القملة حية وقد عد قوم في جملة مورثات النسيان — الاكثار من تناول الحوامض والنظر الى مايجب ستره واطالة النظر في النجوم .

قلت لا بأس ان يضاف الى هذه المورثات ما قد يكون اعظم منها تأثيراً في الحافظة وهي البطنة و يقال لصاحبها البطن وهو الأشر المتمول ومن همه بطنه او الرغيب الذي لا ينتهي من الاكل كالمبطان فقد قيل : البطنة تذهب الفطنة ، ومن تلك المورثات الافراط في الباءة فانه يضعف الدماغ و ينقص مادته ، ومنها ادمان المسكرات والمخدرات على اي صفة كان تعاطيها ومن اي نوع كانت حتى السعوطات والتدخين بالتبغ ، ومنها كثرة النوم فانها تورث الخمول وتبلد الفكر ، ومنها حبس الذاكرة وصرفها بكليتها الى الاشتغال باحراز المال وطلب الرياسة فان المتدهور في هذه الهاوية السحيقة لو كلفته حفظ حديث او بيت واحد لأظهر لك العجز عن حفظه .

ومنها وهو اعظمها بل هو الكل في الكل في توريث النسيان — الهم ولاسيما مايتوالى منه كل يوم على العائل المملق ومايعانيه من الضنك والكرب في سبيل الحصول على معاش عياله ،

ذلك هو السبب الاقوى في طمس الواح الفكر والفتك في القوة الحافظة والاغارة على ما اكتنز فيها من جواهر العلوم والفهوم فقد نقل عن الامام الشافعي قوله : (لو كلفنا بصلة ما تعلمنا مسألة) .

قوة الحافظة موهوبة لا مكسوبة — . قوة الحافظة منحة ربانية يخص الله بها من يشاء من عباده فهي كباقي المواهب الطبيعية لا تنال بالسعي ولا تدرك بالارادة .

لا يكبر على القارئ تصديق ما سنورده في اخبار اقوياء الحافظة وكثرة محفوظاتهم فيقول ان هذا الا من مبالغة المؤرخين ومجازفات نقلة الاخبار بل يعتقد ان للطبيعة خوارق تتخذ لها مظاهر في كل زمان ومكان وان الذين اختصوا بهذه الملكة العظيمة في التاريخ الاسلامي انما امتازوا باستثمارها على غيرهم بما كانوا عليه من صفاء القرائح و بساطة المعيشة وصدق العزيمة وصميم الاعتقاد بحسنى العقبى فلم يسلطوا على تلك الملكة مايضعفها ولا قارفوا شيئاً من مورثات النسيان بل تجافوا عنها جد التجافي واعظم ما استعانوا به على صيان موهبتهم هذه تجردهم من حب الدنيا وهجرهم الملذات البدنية وايثارهم الكمالات النفسانية واستجلاء العلوم على كل لذة فتسوغوا بالعفاف وتبلغوا بالكفاف .

يحكى ان اباحامد الاسفراييني الذي انتهت اليه في وقته رئاسة الدين والدنيا كان يعيش عيشة الكفاف ، يحرس في درب و يطالع على زيت الحراسة و يعيش من اجرها ، وان ابن حمدويه علي بن احمد الامام اليزدي كان له عمامة وقميص بينه وبين اخيه اذا خرج هذا قعد هذا واذا قعد هذا خرج هذا ، وان ابانصر محمد الفارابي كان قانعاً باليسير من الرزق كان في اول امره ناطور بستان في دمشق وهو مع هذا ملازم للاشتغال ليله ونهاره فكان في اكثر لياليه يستضيء على المطالعة بقنديل الحارس وأراد سيف الدولة أن يوسع عليه فلم يقبل سوى اربعة دراهم فضة في اليوم ، وكان عبدالرحمن بن محمد الانباري لا يعتريه تصنع ولا يعرف السرور ولا أحوال العالم كان له من ابيه دار يسكنها ودار وحانوت مقدار اجرتهما نصف دينار في الشهر يقتنع به و يشتري منه ورقاً ولا يوقد عليه ضوء وتحته حصير قصب وعليه ثوب خلق ولا يخرج من بيته الا يوم الجمعة وسير اليه المستضيء خمسمائة دينار فردها فقال له أجعلها لولدك فقال : ان كنت خلقته ارزقه . وكان محمد بن القاسم الانباري لا يأكل الا البقول ولا يشرب الا قرب العصر مراعاة لحفظه وسيأتي ذكرهما . ولو أردت

استقصاء ذكر أمثال هؤلاء المتقشفين في معايشهم إيثاراً للذة العلم على كل لذة لا تسع لنا المجال وأفضى بنا الحال الى الملال .

* * *

وهنا أشرع بذكر العلماء الحفظة الذين وعدت بذكرهم في افتتاح هذه المقالة : أبدأ بتسطير سنة وفاة احدهم ثم اتبعها بالكلام على سرعة حفظه وما يؤثر عنه من المحفوظات : مقتصراً على ذكر أشهر مشاهيرهم مضرباً عن ذكر من نقل عنه انه كان يحفظ كتاباً او كتابين فان الإحاطة بذكر هؤلاء مما يملأ مجلداً ضخماً يجدر ان يؤلف على حدته فأقول :

(سنة ٦٨) عبدالله بن عباس : يحكى عنه في قوة الحافظة انه استنشد عمر بن ربيعة القرشي شيئاً من شعره فأنشده قصيدته التي اولها :

امن آل نعم انت غاد فمبكر غداة غدٍ ام رائح فمهجّر

وهي تعد ثمانين بيتاً فاعترض عليه احد الحاضرين بقوله : أنضرب اليك اكباد الابل تسألك عن الدين و يأتيك غلام من قريش فينشدك سفهاً فقال عبدالله ماسمعت سفهاً فقال المعترض :

رأت رجلاً اما اذا الشمس عارضت فيخزى واما بالعشيّ فيخسر

فقال ابن عباس ما هكذا قال وانما قال (فيضحى واما بالعشي فيخصر) قال المعترض اوَ تحفظ الذي قال قال والله ماسمعتها الا ساعتي هذه ولوشئت ان أوردها لأوردتها وأنشده اياها كلها .

(سنة ١١٧) قتادة بن دعامة السدوسي البصري الاعمى : كان يضرب به المثل في حفظه قال ماقلت قط لمحدث أعد عليّ « وماسمعت أذناي شيئاً الا وعاه قلبي » قال الامام احمد بن حنبل في حقه : قتادة عالم بالتفسير و باختلاف العلماء ثم وصفه بالفقه والحفظ وقال قلما نجد من نقدمه ، قرئت عليه صحيفة جابر مرة واحدة فحفظها .

قلت لانجد ماتشبه به أدمغة من عرفوا بحفظ مايلقى اليهم من الكلام من سمعة واحدة كعبدالله بن عباس وقتادة وابي تمام والمتنبي والمعري — الا بقرص الآلة المعروفة عندنا بالسماعة اوحافظة الصدى (الفونغراف) فان ذلك القرص شبيه بادمغة اولئك من جهة حفظه مايلقى اليه من الكلام من سمعة واحدة .

(١٥٥) حماد الراوية : قال له الوليد بن يزيد الاموي — بما استحققت هذا الاسم فقال لاني اروي لكل شاعر تعرفه يا امير المؤمنين او سمعت به ثم اروي لاكثر منهم ممن تعترف بانك لا تعرفه ولاسمعت به ثم لاينشدني احد شعراً قديماً ولاحديثاً الاميزت القديم من الحديث ، فقال له فكم مقدار ماتحفظ من الشعر قال كثير · ولكنني انشدك على كل حرف من حروف الهجاء مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الاسلام ، قال سأمتحنك في هذا ثم امره بالانشاد فانشد حتى ضجر ثم وكل به من استحلفه ان يصدقه عنه ويستوفي عليه فأنشده الفين وتسعمائة قصيدة للجاهلية واخبر الوليد بذلك فأمر له بمائة الف درهم ·

(٢٠٦) الامام محمد بن ادريس الشافعي : كان يحفظ الكثير الوافر من العلوم بكتاب الله وسنة رسول الله واختلاف أقاويل العلماء وكلام العرب واللغة والعربية والشعر حتى ان الاصمعي على جلالة قدره في هذا الشأن قرأ عليه اشعار الهزليين : قال الامام الشافعي قدمت على مالك بن انس وقد حفظت الموطأ فقال لي احضر من يقرأ لك قلت انا قارئ فقرأت عليه الموطأ حفظاً · وحفظ الشافعي خمسة وعشرين حديثاً حدث بها مالك في جلسة واحدة ، وحفظ كتاب الاوسط لابي حنيفة في ليلة واحدة ·

(٢١٧) عبد الملك المعروف بالاصمعي : كان يحفظ ستة عشر الف ارجوزة وحضر مرة في مجلس الحسن بن سهل وكان يوقع في رقاع للناس في حاجاتهم وكانت خمسين رقعة وبعد ان وقع بها كلها اخذ يتذاكر مع من حضر مجلسه في الحفظ والحفظة فالتفت ابوعبيدة وكان من جملة الحاضرين وقال للحسن ما معناه — هنا من يقول ما قرأت كتاباً قط فأحتاج ان اعود فيه ولادخل قلبي شئ فخرج منه فقال الاصمعي الى الحسن — ايها الامير ان ابا عبيدة يريدني بهذا القول وقد صدق فان الامير قد نظر فيما نظر من الرقاع وانا اعيد من حفظي مافيها وماوقّع بها الأمير على كل رقعة منها فأحضرت الرقاع ليعارض بها ما يقول فقال الاصمعي — صاحب الرقعة الاولى قال كذا واسمه كذا فوقع له بكذا والرقعة الثانية والثالثة حتى مر نيف واربعين رقعة فالتفت اليه نصر بن علي وقال له ايها الرجل أبق على نفسك من العين فكف الاصمعي ·

(٢١٩) ابو بكر الحميدي بن حميد : كان يحفظ لابن عيينة عشرة آلاف حديث ·

(٢٣١) حبيب بن اوس الطائي المعروف بابي تمام : كان له من المحفوظات ما لا يلحقه غيره : قيل كان يحفظ اربعة عشر الف ارجوزة للعرب غير القصائد والمقاطيع ، وكان يحفظ القصيدة الطويلة متى سمعها مرة واحدة ، وانشد البحتري قصيدته التي اولها « أأفاق صب من هوى فأفيقا » وكان ابو تمام حاضراً فحفظها كلها وهي تبلغ نحو سبعين بيتاً وقصتها مشهورة مذكورة في ترجمته ·

(٢٤١) الامام احمد بن حنبل : كان يحفظ الف الف حديث وعن ابي زرعة انه احرز كتب احمد يوم مات فبلغت اثني عشر حملاً وعدلاً ما كان على ظهر كتاب منها حديث فلان ولا في بطنه حدثنا فلان وكل ذلك كان يحفظه على ظهر قلبه ·

(٢٥٦) الامام اسماعيل البخاري صاحب الصحيح المنسوب اليه : كان آية في الحفظ والضبط وبلغ ماحفظه في صباه سبعين الف حديث ثم بلغ حفظه بعدذلك مائة الف حديث صحيح ومائتي الف حديث غير صحيح ، وامتحن حفظه جماعة من اهل الحديث فجمعوا مائة حديث وقلبوا متونها واسانيدها وجعلوا متن هذا لاسناد الآخر والقوها عليه واحداً بعد واحد وهو يسمعها ويتجاهل بمعرفتها حتى اذا فرغوا من القائها طفق يجيب عنها واحداً بعد واحد فرد كل حديث منها الى اسناده الصحيح وكل اسناد الى متنه فأقر له الناس بالحفظ والضبط واذعنوا له في الفضل ·

(٢٦٤) اسحق بن ابراهيم المعروف بابن راهويه : قال احمد بن حنبل في حقه — عندنا امام من أئمة المسلمين وما عبر الجسر أفقه من اسحق · قال اسحق احفظ سبعين الف حديث واذاكر بمائة الف حديث وماسمعت قط شيئاً الا حفظته ولا حفظت شيئاً قط فنسيته · واملى على جماعة من اهل العلم احد عشر الف حديث من حفظه ثم قرأها عليهم فما زاد حرفاً ولا نقص حرفاً ·

(٣٠٢) يونس بن حبيب النحوي : قال ابو عبيدة معمر بن المثنى — اختلفت الى يونس اربعين سنة أملأ كل يوم الواحي من حفظه ·

(٣٠٨) عبد الله بن محمد المكفوف القيرواني : كان يجلس مع حمدونة النعجة في مكتبه فربما استعار بعض الصبيان كتاباً فيه شعر او غريب او شيء من اخبار العرب فيقتضيه صاحبه اياه فاذا ألح عليه أعلم عبدالله فيقول له أقرأه علي فاذافعل قال أعده ثانية

ثم يقول له رده على صاحبه ومتى شئت تعال حتى أمليه عليك .

(٣٢١) محمد بن الحسن بن دريد اللغوي : كان واسع الرواية لم ير احفظ منه وكانت دواوين العرب تقرأ عليه فيسابق الى اتمامها من حفظه .

(٣٢٨) محمد بن القاسم الانباري النحوي : كان اكثر الناس حفظاً في الادب قال ابوعلي القالي — كان محمد الانباري يحفظ ثلاثمائة الف بيت شاهد في القرآن الكريم وقيل له قد اكثر الناس في محفوظاتك فكم تحفظ قال أحفظ ثلاثة عشر صندوقاً وقيل انه كان يحفظ مائة وعشرين تفسيراً للقرآن باسانيدها .

(٣٥٤) احمد بن الحسين ابوالطيب المتنبي : كان سريع الحفظ وقف مرة على وراق فجاء رجل ومعه كتاب للبيع فأخذه المتنبي من يده وطفق يقرأه فقال له صاحبه ادفع الكتاب للوراق وبعد ان يشتريه مني خذه منه واقرأه فدفع المتنبي الكتاب للوراق وقال له لم يبق لي به من حاجة فاني قد حفظته ومر بتلاوته حتى أتى على آخره .

ومما يدل على كثرة حفظه كثرة نقله اللغة واطلاعه على غريبها وحوشيها ولا يسأل عن شيء الا و يستشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر حتى قيل ان ابا علي الفارسي قال له يوماً كم لنا من الجموع على وزن فعلى فقال في الحال حجلى وظربى قال الشيخ ابو علي فطالعت كتب اللغة ثلاث ليال على ان أجد لهذين الجمعين ثالثاً فلم أجد .

(٣٥٦) علي ابوالفرج الاصبهاني صاحب كتاب الاغاني : قال التنوخي في حقه : ومن المتشيعين الذين شاهدناهم — ابوالفرج الاصبهاني يحفظ من الشعر والاغاني والآثار والاحاديث المسندة والنسيب ما لم ار قط من يحفظ مثله و يحفظ دون ذلك من العلوم الأُخر اللغة والنحو والخرافات و السير والمغازي ومن آلة المنادمة شيئاً كثيراً مثل علم الجوارح والبيطرة ونتف من الطب والنجوم .

(٣٥٦) اسماعيل ابوعلي القالي صاحب الآمالي المنسوبة اليه وقد أملاها من حفظه وله غيرها من المؤلفات الكثيرة التي أملاها من حفظه ايضاً .

(٣٨٥) علي بن عمر المعروف بالدارقطني : كان يحفظ ديوان السيد الحميري الذي يشتمل على الفين وثلاثمائة قصيدة في مدح بني هاشم فقط سوى القصائد الاخر المنظومة في بقية المعاني ومدائح الناس وهجوهم .

(٣٩٣) محمد ابو بكر الخوارزمي : يحكى عنه انه قصد الصاحب بن عباد وهو بأرجان فلما وصل الى بابه قال لاحد حجابه « قل للصاحب على الباب احد الادباء وهو يستأذن بالدخول » فدخل الحاجب واعلمه فقال الصاحب قل له قد الزمت نفسي ان لا يدخل علي من الادباء الا من يحفظ عشر ين الف بيت من شعر العرب فخرج اليه الحاجب واعلمه بذلك فقال ابو بكر ارجع اليه وقل هذا القدر من شعر الرجال ام من شعر النساء ؟ فدخل الحاجب فاعاد عليه فقال الصاحب « هذا يكون ابا بكر الخوارزمي » فاذن له في الدخول فدخل عليه فعرفه ٠

(٣٩٨) احمد بن حسين المعروف بالبديع الهمذاني : كان ينشد القصيدة التي لم يسمعها غير مرة واحدة فيعيدها من حفظه مقلوبة وهي تربو على خمسين بيتاً وينظر في الاربع والخمس الاوراق من كتاب لم يعرفه نظرة خفيفة ثم يهزها على ظهر قلبه : يحكى انه لما دخل نيسابور اعجب بنفسه وانكر على الناس قولهم « فلان الحافظ في الحديث » ثم قال وحفظ الحديث مما يذكر « فسمع به محمد بن عبدالله بن حمدو به الحاكم الضبي المتوفى سنة ٤٠٥ فوجه اليه بجزء من الحديث واجّله في حفظه جمعة فرد الجزء بعد جمعة وقال من يحفظ هذا محمد بن فلان وجعفر بن فلان عن فلان اسامي مختلفة والفاظ متباينة » فقال له الحاكم فاعرف نفسك واعلم ان حفظ هذا اضيق مما انت فيه ٠

(٤٣٩) محمد بن عبد الواحد المعروف بالمطرز : كان اكثر ما يمليه من التصانيف يلقيه من لسانه من غير صحيفة يرجع اليها حتى قيل انه املى من حفظه ثلاثين الف ورقة من اللغة ، وكان يسأل عن شيء تكون الجماعة قد تواطأت على وضعه فيجيب عنه ثم يترك سنة ويسأل عنه فيجيب عنه بذلك الجواب بعينه ٠

(٤٤٩) احمد ابو العلاء المعري : يذكر المؤرخون في قوة حافظته اخباراً كثيرة ربما كان بعضها مما يحيله العقل وقد اقتصرت منها على حكاية واحدة يسهل تصديقها ولا سيما ان راويها ثقة معروف وهو الامير أسامة بن منقذ قال كان بانطاكية خزانة كتب وكان الخازن بها رجلاً علوياً فجلست يوماً عنده فقال لي قد خبأت لك خبيئة غريبة ظريفة لم تسمع بمثلها في تاريخ ولا في كتاب منسوخ ، قلت وما هي قال صبي دون البلوغ ضرير يتردد الي وقد حفظته في ايام قلائل عدة كتب وذلك اني اقرأ عليه الكراسة والكراستين

مرة واحدة فلا يستعيد الا ماشك فيه ثم يتلو عليّ ماقد سمعه مني كأنه كان محفوظاً له قلت فلعله يكون محفوظاً قال سبحان الله كل كتاب في الدنيا يكون محفوظاً له ولئن كان ذلك كذلك فهو اعظم ثم حضر المشار اليه وهو صبي دميم الخلقة مجدر الوجه على عينيه قليلا وهو يتوقد زكاء يقوده رجل طويل من الرجال احسبه يقرب من نسبه ، فقال له الخازن ياولدي هذا السيد رجل كبير القدر وقد وصفتك عنده وهو يحب ان تحفظ اليوم مايختاره لك فقال سمعاً وطاعة فيختار ما يريد ، قال ابن منقذ فأخترت شيئاً وقرأته على الصبي وهو يموج و يستزيد فاذا مر بشيء يحتاج الى تقريره في خاطره يقول اعد عليّ هذا فأردده مرة اخرى حتى انتهيت الى ما يزيد على كراسة ثم قلت له يقنع من هذا من قبل نفسي قال اجل حرسك الله قلت كذا وتلا عليّ ماامليته عليه وانا اعارض بالكتاب حرفاً حرفاً حتى انتهيت الى حيث وقفت عليه فكاد يذهب عقلي لما رأيت منه وعلمت انه ليس في العالم من يقدر على ذلك الا ان يشاء الله وسألت عنه فقيل لي هذا ابو العلاء المعري من بيت العلم والقضاء والثروة والغنى ٠

(٤٥٨) علي بن احمد بن سعيد اللغوي المعروف بابن سيده الضرير : قال في حقه ابو عمر الطلمنكي — دخلت مرسية فتشبث بي اهلها ليسمعوا عليّ كتاب (الغريب المصنف) فقلت لهم انظروا من يقرأ وانا امسك كتابي فأتوا برجل اعمى يعرف بابن سيده فقرأه من اوله الى آخره حفظاً من قلبه فتعجبت منه ٠

(٤٧٨) عبد الملك بن عبد الله الجويني امام الحرمين : كان يحفظ اثنتي عشرة الف ورقة من كلام القاضي ابي بكر ٠

(٥٠٣) محمد بن عباس الخوارزمي : كان يحفظ شرح المهذب لابي بكر الصيدلاني في مجلدات ويحفظ تفسيراً لثعلب جميعه ٠

(٥٠٥) محمد بن محمد المعروف بالغزالي : كان يحفظ جميع ما علقه في مؤلفاته الكثيرة فلا حاجة للتطويل في ذكر محفوظاته ٠

(٥٤٤) محمد بن مروان الاشبيلي الاندلسي : كان يحفظ شعر ذي الرمة وهو ثلث لغة العرب مع الاشراف على جميع اقوال اهل الطب ٠

(٥٨٠) الخضر بن ثروان التوماثي : كان يحفظ الجمل وشعر الهزليين واخبار

الاصمعي ورؤبة والعجاج وذي الرمة وغيرهم من المخضرمين واهل الجاهلية والاسلام .

(٥٨٩) السلطان صلاح الدين يوسف الايوبي : كان يحفظ القرآن وكتاب التنبيه في الفقه وشعر الحماسة .

(٥٩٥) القاسم الشاطبي صاحب حرز الاماني : وهي المنظومة اللامية العجيبة في فن القراآت السبع كان يقرأ عليه صحيح البخاري ومسلم والموطأ فتصحح النسخ من حفظه ويملي النكت على المواضع التي تحتاج اليها ولما دخل مصر قال انه يحفظ وقر بعير من العلوم بحيث لو نزل عليه ورقة لما احتملها .

(٧٢٤) احمد بن ابراهيم الكناني العسقلاني : كان يحفظ مختصر الخرقي في الفقه وألفية ابن مالك والطوالع للبيضاوي والشذور والملحة وحفظ نصفها في ليلة واحدة ويحفظ غير ذلك من الكتب التي كان يعرضها على علماء عصره .

(٧٢٨) الامام احمد بن تيمية له من المؤلفات المفيدة مايربو على اربعمائة كتاب كلها كان يمليه من خزانة فكره ويغترفها من بحار معرفته وكان الناس يبهتون من كثرة حفظه فهو حقيق ان يعد امام الحفاظ في العالم الاسلامي .

(٧٩١) ابراهيم المعروف بابن مسافر : كان يحفظ القرآن والعمدة والألفية ومنهاج البيضاوي وكتاب التدريب ومنهاج النووي وعرض محفوظاته على علماء عصره .

(٨١٧) محمد بن يعقوب الفيروزابادي صاحب القاموس المحيط كان سريع الحفظ وكان يقول لا انام الا واحفظ مائتي سطر ومما يدل على قوة حافظته اتيانه برديف الكلام علي بن ابي طالب على الفور لما قصد علماء الروم امتحانه فسألوه عن قول علي لكاتبه (الصق روانفك بالجبوب الخ) .

(٨٣٣) محمد بن محمد الجزري : يحفظ القرآن والشاطبية والرائية وكتاب التنبيه لابي اسحق والفية ابن مالك ومنهاج البيضاوي وتلخيص المفتاح ومنهاج البلقيني والفية العراقي وعرض محفوظاته على شيوخ عصره .

(٩٠٠) حسن بن علي الحلبي المعروف بالسيوفي : يحفظ القرآن ومنهاج النووي والارشاد لابن المقري والفية العراقي والسيرة النبوية ومنهاج البيضاوي في اصول الفقه

والشاطبية وكافية ابن الحاجب والفية ابن مالك والطوالع للبيضاوي في الاصول والشمسية في المنطق وتصريف العزي ·

(فريق من الحفظة الذين لم اهتد الى تاريخ وفياتهم) — منهم الهيثم بن احمد بن غالب قال في كتاب نفح الطيب : كان آية في الحفظ وكان يحفظ ديوان ذي الرمة واختبره جماعة من الادباء في الحفظ فاقترحوا عليه ان ينشدهم شعراً قافيته (قاف) فابتدأ من اول الليل الى ان طلع الفجر وهو ينشد وزن (أرق على أرق ومثلي يأرق) وسمّاره قد نام بعضهم وبعضهم قد مل وسئم وهو لم يفارق قافية القاف ·

ومنهم الشيخ محمد التونسي الشهير بالغوثي قال في الشقائق النعمانية انه كان يحفظ المطول مع حواشيه وشرح المطالع للرازي والتلويح شرح التوضيح وشرح مختصر ابن الحاجب للعضد وحواشيه والكشاف مع حواشي الطيبي ·

ومنهم حميد الدين بن افضل الدين الحسيني قال في كتاب الشقائق : قال محيي الدين التفتازاني في حقه انه قرأ عليه مدة طويلة وشهد له بانه لم يجد مسألة من المسائل الشرعية والعقلية الا وهو يحفظها قال ولو ضاعت كتب العلوم كلها لامكن ان يكتبها من حفظه ·

ومنهم مصلح الدين مصطفى الشهير بالبغل الاحمر قال في كتاب الشقائق : حكى عنه احد تلامذته انه كان يحفظ جميع المسائل بجميع العلوم وقال ماذكرت عنده مسألة من الفنون الادبية والعقلية والشرعية الاصلية والفرعية الا وهي في حفظه بالفاظها وعباراتها حتى انه كان يعرف اختلاف النسخ · وغضب يوماً من بعض الطلبة لعناده في مسألة فقال ما من مسألة من كتاب المقصود في الصرف الى الكشاف للزمخشري الا وهي في خاطره قال صاحب الشقائق وكلامه هذا صادق لا ريب فيه ·

وهنا أستوقف اليراع عن اذاعة ما يكنه في حافظته من اسماء اقوياء الحافظة وكثيري المحفوظات الذين لو اطلقت اليراع في حلبة بيان اسمائهم لضاقت عن جريه صفحات المجلة وانما اكتفي الآن بايراد هذه النبذة عملاً بما يقال (ما لا يدرك كله لا يترك قله) ·

حلب : كامل الغزي

عضو المجمع العلمي العربي

مطبوعات حديثة

حوليات مصر السياسية

« تأليف احمد شفيق باشا »

تمهيد الجزء الثاني ص٧٩٩ وملحقه ١٢٨ص طبع سنة ١٣٤٦ هـ ١٩٢٧ م ٠

تمهيد الجزء الثالث ص٧٣٥ طبع سنة ١٣٤٦ هـ ١٩٢٨ م ٠

الحولية الاولى سنة ١٩٢٤ م ص٦١١ طبعت سنة ١٣٤٧ هـ ١٩٢٨ م ٠

الحولية الثانية سنة ١٩٢٥ م ص١١٠٤ طبعت سنة ١٣٤٧ هـ ١٩٢٨ م ٠

الحولية الثالثة سنة ١٩٢٦ م ص٧٠٧ طبعت سنة ١٣٤٨ — ١٩٢٩ ٠

وكلها مطبوعة في مطبعة شفيق باشا ومطبعة حوليات مصر السياسية بشارع الدواوين بالقاهرة ٠

بلغ المؤرخ الاستاذ واضع هذا الكتاب العظيم أمنيته على نحو ماتوقعه في الجزء الاول من حولياته (مجلة المجمع العلمي العربي م ٨ ص ٣٠٦) وما أمنيته الا خدمة مصر وتاريخها ٠ وبعد ان مهد لتاريخه في ثلاثة مجلدات عاد فخص كل سنة بمجلد فكتب تاريخ مصر الآن بعد المقدمات المهمة من سنة ١٩٢٤—١٩٢٦ اي ثلاث سنين وتوخى « خطة الحياد في سرد الحوادث وبيان ارتباطها بعضها ببعض » وابتعد « عن الحكم فيها الا بما قضت به ضرورة البيان متوخياً في الحكم البحث عن الحقيقة المجردة » « فما زالت علة التاريخ الزيغ والميل مع الهوى » « وحسبك ان تعلم ان اول واجبات المؤرخ نسيان عواطفه ووأد العوامل الشخصية وأداً تاماً ، والتحرر من النزعات النفسية إطلاقاً حتى لاتصطبغ كتابته بما يشوّش بهاء الحق و يغض من جمال الصدق » .

وفي الحق ان المؤلف راعى هذه الاعتبارات كل المراعاة فيما أصدره حتى الآن من مجلداته الستة الممتعة بحيث لا يحتاج الباحث بعدها في تلخيص تاريخ مصر الحديث الا الى الرجوع الى مادوّن من هذه الوثائق الثمينة وبذلك وفر للباحثين اوقاتهم واعطاهم زبدة ماتم في تاريخ مصر السياسي ٠ وحسب القارئ ان يعرف ان العلامة مؤرخ مصر

الحديثة صرف حياته في معاناة السياسة خائضاً فيها مع الخائضين قريباً كل القرب من الاوساط السياسية . وهو يكتب الآن مجرداً عن مظاهره القديمة وقد نضج علمه وصحت تجاربه . ولذلك يهنأ على عمله الجيد الذي خلد به مجد مصر الأخير على صورة ترفع رأس كل مصري بل كل عربي وشرقي . وفقه الله الى إتمام مشروعه الذي تنوء بحمله الجماعات دع الافراد . وانا لنرجو ان تنبعث همة كل اخصائي في علم من العلوم البشرية في مصر والبلاد العربية ليقدم لامته خدمة كخدمة صديقنا احمد شفيق باشا ، اذاً لامتلأت الخزائن بنفثات الأقلام وخرجنا بالامة الى رحاب البحث العلمي الممتع ولماخونا امام أمم الغرب بدؤوبنا وتسلسل اعمالنا ، فمحونا بعملنا وجدنا الوصمة التي طالما وصمنا بها الدخلاء برميهم ايانا بوناء الهمم افراداً وجماعات . م . ك

المجمع العلمي اللبناني

« خلاصة اعماله الى السنة الحاضرة (١٩٣٠) بطبعة المعرض بيروت »

رسالة في أعمال المجمع منذ نشأته في ٢٠ شباط سنة ١٩٢٨ وفيه خلاصة من تقارير خمسة وضعتها اللجنة الادارية — واللغوية — والجغرافيا والتاريخ — والمخطوطات ورأي رئيسه وبعض اعضائه في دائرة المعارف . ولم تخرج كلها عن حدود التقارير التي لم تنفذ بعد وننتظر عطف الجمهورية اللبنانية حتى تخرج من الاقوال الى الافعال . وقد استفدنا منه ان في مكاتب بيروت الكبرى ٦٧٤ مؤلفاً عربياً مخطوطاً منها ٤٧٦ مجلداً و١٩٨ رسالة . ففي الجامعة الاميركية منها ١٨٣ مجلداً و١٣٤ رسالة . وفي مكتبة الآباء اليسوعيين ٢٤٥ مجلداً و٤٤ رسالة . وفي دار الكتب الكبرى ٤٨ مجلداً و٢٠ رسالة . وان لجنة الجغرافيا والتاريخ « طبعت جداول تمهيدية لوضع القاموس العام وفي كل منها حقول متنوعة لاسماء المدن والدساكر والقرى والمزارع وعدد النفوس والمذاهب والانهار والينابيع والجبال والمناجم والمعابد والمقامات والمعامل والمعاهد العلمية ومواطن الآثار واهم الحاصلات الزراعية والمنسوجات الوطنية الى غير ذلك من الشؤون العمرانية الاقتصادية عدا أماكن الاصطياف ومواردها التي لها المقام الاول في جبل لبنان » .

والمأمول ان يتم هذا المعجم قريباً وان يشرع المجمع الشقيق في القاء المحاضرات العشر التي اعدها لهذه السنة وهي مهمة في بابها ولا بأس بان نلفت نظر من وضعوا هذه الرسالة الى ان المجامع التي ذكروها في العراق ومصر (بل وشرقي الأردن) لم تتعد حدالتأسيس بل حدّ الاماني حتى الآن . وعالم الادب ينتظر منهـا ومن المجمع اللبناني اعمالاً أدبية محسوسة تقرُّ بها عيون العرب والعربية . م . ك

سيد قريش

— بقلم —

« الاستاذ معروف الارناؤط »

قال ابو العباس النامي في المتنبيُّ والنامي ، من خواص شعراء سيف الدولة : كان بقي من الشعر زاوية دخلها المتنبيُّ ، وانا لما قرأت (سيد قريش) واحطت بحياة العرب ، وسياستها ، واجتماعها في جاهليتها الجهلاء ، خطر ببالي ان اقول في الاستاذ معروف الارناؤط ما قاله النـامي في المتنبيُّ : كان بقي من الادب زاوية دخلهـا السيد معروف الارناؤط .

وما هذه الزاوية الا زاوية الرواية ، ولقد دخلها الاستاذ معروف وتبجبح في ساحتها ، فيّأته وفيّأها ، فما نكرت جانبه ولا نكر جانبها ، أعطته كل ما ملكت ، واعطاها كل ماملك ، أعطته صوراً هامدة فأحياها ، وارواحاً جامدة فحرّكها ، وألواناً كامدة فصفّاها ، فان شئت ان تشاهد شيئاً من حيـاة هذه الصور ، وحركة هذه الارواح ، وصفاء هذه الالوان ، فارجع الى اي فصل من فصول سيد قريش ، اني لا ادلك على موضع من مواضع روعتها ، فاختر لنفسك ماشئت من فصولها في الغساسنة والمناذرة ، والقياصرة والاكاسرة ، فان كان في قلبك غم لم تفرّجه فارجع الى فصلها في شاعر الغساسنة ، انك تجد دمشق في ربيعها الطلق تهش بك ازاهيرها ، وتضحك اليك رياحينها ، فاستظلّ بهذا الظل الخضل ، وان كان في عينيك بقية دمع لم تذرفه ، فارجع الى فصل العرب بين الروم والفرس ، انك تصادف أمة مصدوعة الشمل من قديم الدهر ، تشتري موتها في سبيل حياة غيرها ،

من الروم والفرس ، يصطنعونها في تأييد سلطانهم ، فيتقاتل الحارث الغساني ، والمنذر اللخمي حتى يتبسط قيصر او كسرى في بلاد العرب ، وان كان في صدرك وحشة في وطنك فارجع الى فصل الوطن في البادية ، انك ترى البدوي يأبى ان يسكن دمشق وجناتها بدل الصحراء ، فتعلم كيف يكون الحنين الى الوطن .

ارجع الى هذه الفصول كلها ، حتى تعرف ماهو سحر العبقرية ، وتدرك الفرق بين كدرة التاريخ ونضارة الفن . لقد وضّح الاستاذ معروف الارناؤط حياة العرب قبل الاسلام في جميع نواحيها ، في سياستها ، واجتماعها ، وثقافتها ، على قدر ما هداه اليه التاريخ ، وعلى قدر ما أوحت اليه الرواية ، والتأليف بين حقيقة التاريخ ، وبين خيال الرواية ، هذا هو السحر الحلال الذي يروعك في سيد قريش .

« شفيق جبري »

هدايا كتب

(العقود الدرية في الدواوين الحلبية) — هي ثلاثة دواوين لثلاثة من شعراء حلب : اولهم حسين بن احمد الجزري المتوفى سنة ١٠٣٢ هـ . وهذا الديوان لم ينشر ولم يطبع بعد . والثاني ديوان فتح الله النحاس المتوفى سنة ١٠٥٢ هـ وهذا طبع وتداول . والثالث ديوان مصطفى بن عبد الملك البابي الحلبي المتوفى سنة ١٠٩١ هـ . وقد طبع ايضاً والاخير منهم هو صاحب الموشح الرقيق الذي وصف فيه عين الذهب ووادي الباب ومطلعه :

(بأبي وا بأبي وا بأبي جرعة من ماء عين الذهب)

وقد ذهل ڤانديك في جغرافيته (المرآة الوضية) فجعل هذه العين في الاندلس مذ قال « ومن الاماكن المشهورة بالاندلس عين الذهب التي يقول فيها مصطفى البابي الحلبي هذا الموشح بابي الخ » والبابي المذكور مات سنة ١٠٩١ هـ اي بعد جلاء المسلمين عن الاندلس بنحو (٢٠٠) سنة فلا يعقل ان يكون — وهو في حلب — قال موشحه في العين التي في الاندلس . وناشر هذه الدواوين الثلاثة هو عضو مجمعنا العلمي الاستاذ الشيخ محمد راغب الطباخ وقد طبعها في مطبعته العلمية بحلب سنة (١٣٤٧ هـ - ١٩٢٩ م) .